

ممدوح الشيخ

القاهرة... بيروت... باريس...

رواية

القاهرة... بيروت... باريس...

رواية

ممدوح الشيخ

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا لحمل بهي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة. بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية.. أفاق بهي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرّب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وبادره قائلاً:

«نحن ندرك شعوركم الطاغي بالاختلاف عنا... ولهذا فضّلنا أن نصدّر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة ... والجزء القليل الذي صُدّر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها».

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خارج النافذة مستطرداً:

«.. وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القيء يا مسيو ثمن طبيعي للتقدم... فلا تقدّم دون ثمن وتضحية وقسوة... طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم السلبية لنا... نحن نجرّب فنصيب ونخطئ... وبالتالي نتقدّم..».

ثم حدّق في عينيه متحدياً: «.. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم مقيّدون بقيود العاطفة والقداسة... إنني أحدثك باعتبارك مثقفاً سيعي معنى ما أقول..»

وصمت بهي للحظات...

ثم بصق في وجهه!!

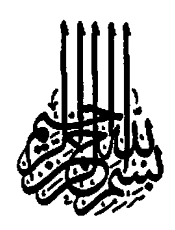
الدار العربيّة للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102
بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+)
فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

ISBN 9953-29-809-2



القاهرة...
بيروت...
باريس...



هذه الرواية

هذه الرواية هي الأولى لكاتبها وقد حصلت على المركز الثالث في الدورة الثانية (2005) للمسابقة السنوية الأدبية التي تنظمها "الهيئة العامة لقصور الثقافة" بمصر برعاية "دار أخبار اليوم للصحافة"، ويمنح جوائزها الكاتب المصري الأستاذ أحمد فتحي عامر (مستشار مؤسسة الفكر العربي).

وكانت لجنة تحكيم الرواية في هذه الدورة مكونة من:

الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله	الأستاذ بجامعة القاهرة
الأستاذ محمد مستجاب (رحمه الله)	الروائي المعروف
الأستاذ مصطفى عبد الله	مشرف الصفحة الأدبية بجريدة الأخبار

القاهرة...
بيروت...
باريس...

روايـــة

ممدوح الشيخ



ردمـــك: 9953-29-809-2

الطبعة الأولى

1427 هـــ - 2006 م



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم،
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1 - 961)
ص. ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1 - 961) - البريد الإلكتروني: asp@asp. com. lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www. asp. com. lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

القاهرة

العاصفة

1

في الصباح تبدو شوارع الأحياء القديمة من القاهرة مجهدة وحيّة ونابضة بالحياة، فيها يقبع ما تبقى من روح هذه المدينة... ليس فقط من البنايات القديمة بل العلاقات الدافئة والأشياء التي تجاهد لتحتفظ لنفسها بموطئ قدم في مدينة تكبر.. وتتغير.. وتزدحم.. وتكفهر.. ولا تشيخ.

وكلما ازدادت المسافة بين الأحياء الراقية الجديدة التي ترسم صور القاهرة الحديثة اقتربت هذه الأحياء القديمة من المتحف المفتوح، فكأن سكانها في مقاهيهم القديمة.. وحوانيتهم المتواضعة الضيقة.. وشرفات منازلهم المتآكلة وشوارعهم المليئة بالحفر يقدّمون عرضاً طبيعياً لصورة زمان ولى، وعندما يزور القاهريون الأكثر حداثة، هذا المكان/الزمان إنما يريد كل منهم أن يرى صورة ماضيه بحنين لاعقلاني ممزوج بالتعالي والإشفاق على سكانها، بينما سكانها مقتنعون بشكل راسخ بأنهم في المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه... وهم من ثم يستخدمون كثيراً تشبيه علاقة السمك بالماء لوصف علاقتهم بعالمهم.

وفي هذه الأحياء تبدو القاهرة أقل تغوّلاً وقسوة.. وأكثر إنسانية.

وعندما تشرق الشمس على شارع زهران المتفرع من شارع حسن الأكبر بحي عابدين تتشكل بالتدريج لوحة بديعة من الناس والحجارة والعربات، ويشترك معظم أصحاب الحوانيت في الشارع الصغير في طقوس لا تكاد تختلف.. تحيّات مثقلة بالخدر... قليل من الماء يرشّه كل منهم أمام بابه... أدعية بالبركة والرزق، ويبدأ صرير الأبواب يتوالى واحداً تلو آخر لتكتمل صورة الشارع.

"صباح الخير يا أستاذ محسن".

ألقاهـــا بنبرة ودودة حسن عامل المقهى وخدر النوم يطل من عينيه راسماً خطوطاً بارزة وغائرة في وجه خشن الملامح تتماهى سمرته المختلطة باصـــفرار واضـــح مـــع لون الفوطة التي يرتديها فوق قميص وسروال رخيصـــين وكانت ذات يوم بيضاء. يرتّب حسن المقاعد والمناضد فوق الرصـــيف أمـــام المقهى الصغير الذي تحولت معظم ألوانه إلى سحابات رماديـــة متقاطعة، وتتوزع نظراته بين الرصيف والشاب المار أمامه الذي بادره التحية بالإشارة وهو يتجه إلى باب خشبي عريض مطلي بلون داكن تبدو عليه علامات الزمن خدوشاً وخربشات غير منتظمة.

فتح محسن قفل الباب ودخل إلى المكتب ليمارس طقوسه اليومية... فـــتح باباً من الألوميتال يقسم المكتب نصفين، حيث في النصف الداخلي يوجد مكتب صاحب الشركة. فتح محسن نافذة مكتب صاحب الشركة ليدخـــلها هواء جديد.. أخرج سلة المهملات لإفراغها من محتويات اليوم الســـابق، وأعـــاد النظام للمكتب الصغير ذي المظهر المتواضع ثم عاد إلى القســـم الخارجي حيث مكتبه هو. التقط منفضة من الريش واتجه للباب الخارجي ومررها على اللافتة الخارجية ليزيل الغبار عنها. ألقى نظرة عابرة عـــلى خط الثلث الأنيق الذي كتبت به اللافتة، أعاد المنفضة إلى مكانها على المسمار المختبئ وراء الباب الخشبي للمحل.

دبّ النشاط في جسده بالتدريج... فهو منذ تخرج في كلية التجارة قبل أحد عشر عاماً اعتاد جسده على دورة من النشاط والاسترخاء تكاد تكـــون ثابـــتة، وعالمه محصور بين البيت الذي يبعد عدة أمتار من مكان عمله والمقهى المواجه، سنوات عمره التي تقترب من منتصف العقد الرابع مـــن العمـــر لا يعكسها مظهره فالنظارة والكرش الواضح يضفيان عليه

مظهـــر رجـــل يقترب من الخمسين. جلس محسن خلف مكتبه المعدني المواجـــه تماماً للباب، وجاءه عامل المقهى بمشروب الصباح، فنجان قهوة تركي معدّ بعناية لزبون دائم، وضع القهوجي فنجان القهوة وانسحب في هـــدوء. اســـتدار محســـن ناحية الهاتف وأدار القرص... فجاءه الردّ من الطرف الآخر سريعاً:

"صباح الخير يا فؤاد بيه".

"الحمد لله".

"اطمئن يا افندم فلم أنصرف بالأمس إلا بعد أن دخلت البضاعة كـــلها المخازن.. يبقى الآن فقط طباعة غلاف العلبة والمطبعة جاهزة للعمل".

"أوامرك يا فؤاد بيه.. سأرسل إليه فوراً".

مـــدّ محسن رقبته يحاول اقتناص القهوجي الذي يتحرك كالبندول ولا يســـتقر في مكان، وانتبه القهوجي فهرول إليه ومدّ يده بشكل آلي ليأخذ فنجان القهوة فأشار إليه محسن أن يتركه:

"لا.. لم أشـــرب القهوة بعد.. أريد منك أن ترسل لي عم شفيق الخطاط بمجرد أن يظهر.. فاهم؟".

أومـــأ العامل برأسه وانسحب تحت ضغط تصفيق زبائن الصباح الـــذي لا ينقطع. خرج حسن وأخرج محسن من أحد الأدراج ملفاً من الأوراق وانهمـــك في القـــراءة.. ثم أخرج الآلة الحاسبة وبدأ ينقل عينيه بكفاءة بين الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. كل شيء يشير إلى يوم عمل شاق ومهمة تستغرق كل تركيزه.

دقّ جرس الهاتف فرفع محسن السماعة مسرعاً:

"آلو".

"نعـــم.. شركة أسواق الشرق العربي لاستيراد الأغذية.. لا فؤاد بيه غير موجود".

"ربما لن يأتي اليوم... فهو مشغول بارتباطات خارج المكتب".

"إذا أرسلتم أمر التوريد اليوم يمكن أن تستلموا البضاعة بعد غد صباحاً".

"لا.. لا.. بالفاكس، الهاتف لا يصلح".

"نفس الرقم.. سأفتح لك الفاكس".

اســتدار وفتح الفاكس ووضع سماعة الهاتف والتفت إلى المكتب متأهــباً لمواصـــلة الغرق في الأوراق والأرقام فوجد عجوزاً يجلس على المقعد المواجه للمكتب..

عـــم شفيق الخطاط. وجه فيه إحساس غريب بالطمأنينة والغربة معاً. تجاوز السبعين بعدة سنوات قضى الشطر الأكبر منها على منضدة في هـــذا المقهى حيث يمارس عمله الذي فرض عليه الحناءة صارت تميّز قوامـــه ونظـــارة سميكة وآثار حبر متفرقة على يديه. جاء صوت العم شفيق هادئاً دافئاً:

"كنـــتَ منهمكاً في الردّ على التليفون، وكانت فرصة لأن ألتقط أنا أنفاسي".

"ربنا يقوّيك يا عم شفيق... فؤاد بيه كما تعلم لا تقنعه خطوط الكومبـــيوتر ويصـــر على أن تكتب بنفسك كل ما نحتاج إليه. ونحن نحـــتاج منك بسرعة أن تكتب لنا بيانات منتج جديد نريد أن يـــنـــزل الأسواق بأقصى سرعة، باختصار يا عم شفيق... الموضوع كله متوقف عليك".

دخــل القهوجــي ووضـــع فنجاناً من القهوة أمام الرجل العجوز والمنهمـــك محســـن في البحث عن ورقة البيانات التي سيكتبها الخطاط من درج إلى آخر فقال لــه العم شفيق بنبرة واثقة:

"البيانات معروفة يا أستاذ محسن، فأنا منذ ثلاثين عاماً أعمل مع فؤاد بيه، وقبله مع أبيه الله يرحمه... لا تجهد نفسك في البحث".

رفع محسن رأسه وابتسم وبدا أنه يريد أن يلاطف الرجل العجوز، فابتسم وقال في نبرة ودودة:

"ثلاثين سنة يا راجل يا عجوز؟".

ضحكا، فقال محسن:

"ألم تجرب الكتابة بالكومبيوتر يا عم شفيق؟".

فقال شفيق وهو يرشف فنجان القهوة:

"جربت.. عندما ظهر كنت من أوائل من تعاملوا معه، وحاولت استخدامه في إنتاج لوحات تجمع بين دقة الآلة ورقة الإنسان، لكنني اكتشفت في النهاية أنه آلة... آلة بلا روح".

اتســـعت عينا محسن الجامعي نصف المثقف من الدهشة وهو يسمع هـــذا العجوز البسيط المظهر يتحدث عن الرقة والدقة والإنسان والآلة. وقطع العم شفيق دهشته:

"لا تندهش يا بني... أم أقول لك يا أستاذ محسن؟".

واكتســـت ملامح محسن، رغم إحساسه المفرط بالانشغال وضيق الوقت، ببشاشة واضحة:

"لا يـــا عـــم شـــفيق بل أنت الذي يستحق عن جدارة وصف

الأستاذ... تفضل أكمل كلامك".

رشف شفيق رشفة أخرى من فنجان القهوة وأشار إلى لوحة معلقة على جدار المكتب خلف محسن وقال:

"انظر إلى هذه اللوحة".

والتفت محسن إليها، وشعر وهو الذي يقضي شطر النهار في المكتب يومياً لسنوات أنه للمرة الأولى يراها بوصفها لوحة، كانت نبرات عم شفيق في حدّ ذاتها دعوة يصعب رفضها للتأمل والتأني. وقبل أن يكمل شفيق كلامه دقّ جرس الهاتف فرفع محسن السماعة بشكل آلي، وبدا من الحوار بوضوح أن المتحدث يستعجل ورقة البيانات التي سيكتبها عم شفيق وأن المطبعة تنتظرها.

أخرجت المكالمة محسن من حوار لم تألفه أذناه، حوار جعله يقدّر هذا العجوز تقديراً مختلفاً وينظر للخطوط التي تركتها السنون على ملامحه نظرة أخرى... نبهته المكالمة بحدة إلى أن الوقت أضيق من أن يحتمل مثل هذه المناقشات المسترخية، حتى لو كانت ممتعة، ترجم إحساسه فوراً بشكل لاشعوري إلى تلطّف واضح لإنهاء المناقشة:

"لا مؤاخذة يا عم شفيق.. كما ترى المطبعة تنتظر وصول ورقة البيانات".

"وأنا جاهز إن شاء الله".

قالها شفيق وهو يأخذ الرشفة الأخيرة من الفنجان ويهم بالقيام متثاقلاً.

2

خـــرج العم شفيق واتجه للمقهى ليجلس على منضدة بعينها اعتاد مـــنذ سنوات أن يجلس عليها ليمارس عمله، حدّق في المنضدة فرأى في بقايـــا الحـــبر الذي يلطخها في خطوط متقاطعة سنوات عمره. تحسست أناملـــه قطعـــة الرخام والهيكل المعدني في ألفة غامرة وهطلت الذكريات كأنهـــا مطر غزير... فمنذ سنوات لم يعبر الجسر الفاصل بين المهنة والفن ولم يخـــض نقاشاً من هذا النوع، أحياناً يشعر العم شفيق أنه هُزم وتحول إلى مجرد "صنايعي" وجاء هذا الحوار العابر لينكأ جرحاً شديد العمق.

"**الفن أنبل ما في التاريخ البشري**"... هذه العبارة التي سمعها شفيق من مُدرِّسه يوم التحق للمرة الأولى بمدرسة الخطوط العربية بشارع نوبار شـــاباً صغيراً يبحث عمن يعلّمه كيف يصبح خطه الجميل مصدر دخل يرتـــزق مـــنه. ومرت السنوات قبل أن يعرف شفيق أن هذا الـــمُدرِّس العجوز فنان عظيم أعطى عمره لفن الخط والزخرفة وأدرك في نهاية رحلته أن الـــزمن لـــيس زمنه فوهب عمره للحبر وقنع بأن ينقل شيئاً من النبل للأجـــيال القادمة... تحسست يده الخطوط والنقاط المتشابكة وتمتم: "**الله يرحمك يا أستاذ حامد... الله يرحمك ويسامحك**".

وبدأ صوت داخلي ينساب في أعماقه مستعرضاً رحلة العمر:

"**كـــان هدفك يا أستاذ حامد أن تضع على كاهل كل تلميذ من تلامـــيذك مســـؤولية الدفاع عن النبل في هذا العالم... لكنك دون أن تقصـــد وضعت على كواهلنا الضعيفة كل التاريخ البشري... ربما لم تتخـــيل أن يـــأتي يـــوم يتحول فيه الناس من جهل النبل أو تجاهله أو**

الاستخفاف به إلى كراهيته.. بل إلى الرغبة في قتله.. هذه هي الحقيقة يا أستاذ حامد... البشري أصبح كل طموحه أن يقتل بشريته ويؤكد حيوانيته".

اقترب القهوجي من شفيق حاملاً حقيبة جلدية عدّت عليها عوادي الزمن وإن لم يخلُ مظهرها من آثار عز اندثر، وضع الحقيبة وهو يمر حاملاً في يده الأخرى بعض المشروبات فأسقطها في حرفية المعتاد ومرق. تناول شفيق حقيبته وقد استبد به وجدٌ غريب اعتصره اعتصاراً، حاول أن يخرج أشياءه بالترتيب المعتاد والعناية نفسها لكن يداه خانتاه، وبالتدريج بدّدت الخواطر المتدفقة سكينته، كان موزعاً بين ذكريات دافئة ومرارة لم تفارقه منذ انتهى به مشوار الطموح والأمل على مقعد في مقهى صغير يبحث عن قوت يومه مولياً ظهره لعالم كان أسبق منه في الانصراف عنه وعن موهبته. غالب الرجل العجوز اضطرابه شيئاً ما وبدأ يكتب.

وسكنت ملامحه بعد لحظات ثم سكنت جوارحه إلا من حركة أنامله الدقيقة كأنها مبضع جراح... وصار معطّل الحواس لا يشعر إلا بحركة الريشة وسنها الدقيق، حتى أخرجه من عزلته محسن بصوته الجهوري وهو يحدثه مقترباً منه في تعجّل شديد:

"الله يا عم شفيق".

قالها حتى قبل أن يرى ما خطه الرجل بسن الريشة الدقيق.. وأكمل بصوت أقل ارتفاعاً:

"كان عندك حق يا عم شفيق... كأنني أرى اللوحة لأول مرة".

ارتسمت على وجه العم شفيق ابتسامة عريضة وهو يشعر هو الآخر لأول مرة منذ سنوات أنه ليس وحده في عالمه الفريد... أصبح الآن يأمل

أن يجد من يشاركه حمل عبء التاريخ البشري، وقال لمحسن:

"الآن أحسست بالبعد الإنساني فيه... لأنه بشري، فيه قبس إلهي".

... انطلقت الكلمة من بين شفتي محسن محملة بصدق حاد كالنصل:

"الله يا عم شفيق...".

وسريعاً استعاد محسن إحساسه بالتعجل وضيق الوقت فقال:

"لا بد أن تكون لنا جلسة أخرى أسمعك فيها بعيداً عن مشاغل العمل".

تحوّل صوت محسن إلى نبرة أكثر جدية، وقال:

"اسمع يا عم شفيق.. هذه الورقة فيها البيانات الجديدة..".

ثم قال بلهجة تقريرية:

"طبعاً أنت تعرف بيانات الشركة كلها وتاريخ الصلاحية وما إلى ذلك.. أنا مضطر للانصراف فوراً، الساعي عند فؤاد بيه في المنزل وسيعود إلى الشركة خلال ساعة، أعطه الورقة بعد أن تكتب وهو يعرف ماذا يجب أن يفعل".

كان الكلام يتوالى يدفع بعضه بعضاً دون فرصة للردّ فأومأ لمحسن، وأدرك أن الوقت من الضيق بحيث لا يتسع لأي نقاش ولا يحتمل استرسالاً في التأمل. تناول ورقة البيانات وبدأ يقرأ:

"لحم بقري مجمد".

"المنشأ تايلند".

"الصلاحية...".

وتلاشـت الكـلمات مـن أمام عينيه وبدأ يغرق في خواطره مرة أخرى.. عبارات بعينها حفرها الأستاذ حامد حفراً في وجدان العم شفيق وعقلـه، وبقيـت كـلمة واحدة تتردد على مسامعه... كلمة واحدة "بشـري".. "بشـري".. وسـيطر على العجوز إحساس بأن الخواطر استضـعفته، ورأت خطوط الزمن على جبهته ورعشة يديه فطمعت أن تهـزمه. واستجمع قوته – أو هكذا تصوّر – وبدأ يصارع في منازلة غير متكافـئة. أنجـز شفيق المهمة وحمل الأوراق إلى مكتب الشركة فخرج السـاعي لاستقباله في توقير يليق بشيبته، فكلمات الترحيب تتوالى واليد تمـتد لـتعين الرجل على الاستقرار على مقعده. مدّ شفيق يده للساعي بـالأوراق، فأخذها الساعي بعد أن استأذن العم شفيق، وطار للمطبعة وتركه، بعد أن طلب لـه كوباً من الشاي من المقهى.

3

دارت ماكيـــنات الطباعة، وانتقلت الأوراق في سرعة وتوتّر بين أيدي العمال الأمين، وكان تأخير عم شفيق في الكتابة سبباً في انصراف صاحب المطبعة نفسه مطمئناً إلى مهارة عماله وخبرة العم شفيق. حملت الأوراق المطبوعة على سيارة لنقلها للمخازن، وهدأ رنين الهاتف المتوالي بعـــد أن اطمأن فؤاد بيه إلى بدء المرحلة الأخيرة من تجهيز المنتج، وجلس محســـن في المكتـــب يـــتلقى أوامر التوريد ويكتب الفواتير، والعمال في المخازن في سهرة خاصة طالما سهروها مع كل منتج جديد يتم تجهيزه.

دقّ جـــرس الهـــاتف ورفع محسن السماعة، جاءه صوت فؤاد بيه واضـــحاً فخلع النظارة وفرك عينيه المنتفختين المجهدتين من طول التحديق في الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. نظر إلى ساعة الحائط المعلّقة خلفه ولم ينتـــبه إلا في هذه اللحظة أن الساعة تجاوزت الثانية صباحاً بقليل. أوقف جـــرس الهاتف حركة الماكينة المكوكية بين شاشة الآلة الحاسبة والأوراق المتناثرة.. وخرج صوت محسن مجهداً نصف مبحوح.

انتهت المكالمة سريعاً فأنعشته لأنها حملت وعداً بالراحة، فبإمكانه أن يســـتريح في البيـــت غداً لأن الباقي من عمليات الشحن والتسليم لا يحتاج وجوده. وحمل محسن مفاتيحه وغادر المكان مشيراً لأحد العمال أن يغلق الباب.

4

عـــاد محسن من الإجازة القصيرة وهو يشعر بخمول لذيذ ويحاول أن يستعيد قدرة الآلة شيئاً فشيئاً، فتح الباب ونظر أمامه فرأى لوحة الخط المعلقـــة عـــلى الحائط منذ سنوات، تذكّر كلام شفيق فتأمّلها وشعر أن التأمّل نفسه يحتاج إلى تعوّد. بدأ محسن في ممارسة طقوسه اليومية.. جلس عـــلى كرسيه وقفزت لذهنه فكرة، أتكون الطقوس اليومية التي أمارسها منذ سنوات هي التي تحجب عني ما يراه رجل مثل عم شفيق؟ دخل عامل القهوة ووضع الفنجان اليومي أمام محسن الذي لم يستكمل دورة الحركة الروتينـــية، فلم يفتح مكتب صاحب الشركة ولا أفرغ سلة المهملات... انسحب حسن وفي يده الصينية في هدوء فقال محسن مستوقفاً:

"هل جاء عم شفيق؟".

فقال العامل: **"نعم".**

ردّ محسن بنبرة متحمسة:

"أحضر لـــه قهوته ليشربها معي هنا".

دخل العم شفيق فحيّا محسن وجلس وهو يشعر بألفة تنمو بينهما شيئاً فشيئاً، والتفت محسن إلى اللوحة المعلّقة خلفه على الجدار وسأل:

"منذ متى كتبت هذه اللوحة يا عم شفيق؟".

ابتسم الرجل وقال بلهجة تعليمية يغلّفها الود الشديد:

"أولاً يجب أن تواجه اللوحة حتى تستطيع أن تتذوقها، فالعمل

الفني كالإنسان لا تستطيع أن تنفذ إلى قلبه ما لم تجعل عينيك في عينيه بشكل مباشر".

اندهش محسن وهو يسمع كلمات الرجل العجوز والدفء الغامر في أحرفها والعمق الشديد في معانيها:

"ألهذه الدرجة تحب الفن يا عم شفيق؟".

"الفن شيء نبيل يا أستاذ محسن، والنبل أجدر الأشياء بالاحتفاء في هذا العالم... وهو من نتائج تكريم الله للإنسان... وفي حدود علمنا فليس للكائنات الأخرى فنون".

زال الحاجز تماماً بين السامع والمتكلم، وكشف العم شفيق عن المثقّف في داخله واستخدم معجماً لم يسمعه محسن على لسانه قبل الآن. شعر محسن أن عليه أن يتعلم وأن يجلس من شفيق مجلس التلميذ من أستاذه.

ترك العم شفيق حديث الفن وسأل محسن: **"ما مؤهلك يا أستاذ محسن؟".**

وردّ **"بكالوريوس تجارة و...".**

وضاع صوت محسن فجأة... وانتبها معاً على صوت سيارة شرطة تطلق نفيرها وتتجه مسرعة ناحية الشركة مثيرة سحابة كثيفة من الغبار وتظاهرة من النظرات المتسائلة في الشارع الهادئ. وقفت السيارة أمام باب الشركة ونزل منها عدد كبير من الجنود أحاط بعضهم بالباب وانتشر آخرون داخل المكتب. عقدت المفاجأة لسان محسن ووقف بشكل لاشعوري بينما العم شفيق يجلس في سكون مترقباً... كانت ملامح الضابط الذي نزل من السيارة واتجه نحو الباب توحي بالصرامة لدرجة

مخيفة.

ابتلع محسن ريقه وتكلم بصعوبة: "خير يا أفندم؟".

"أنت صاحب الشركة؟" قالها الضابط كما لو كانت مقدّمة لكارثة، فردّ محسن متلعثماً:

"لا.. لا يا أفندم... صاحب الشركة فؤاد بيه عبد القادر وهو غير موجود".

بـــدأ الضابط يتحرك متفحصاً كل شيء في صمت دون أن يتخلى عن صرامته، وقال في تهكم لا يخلو من عدوانية: "وأنت ماذا تعمل؟".

"محاسب يا أفندم".

"وأين صاحب الشركة؟".

"في المنـــزل يا أفندم".

قالهـــا محســـن وهو يمد يده إلى الهاتف، وبدا وهو يحاول تهدئة الضـــابط كما لو كان ينـــزع فتيل قنبلة توشك أن تطيح برأسه. طلب الرقم في ارتباك شديد وانتظر أن يردّ الطرف الآخر لحظات مرت كأنها أيـــام، وهـــو يختلس النظر للضابط وكأنه يتوقع أن يطلق عليه الرصاص دون تحقيق أو محاكمة بل حتى دون أن يعرف ما تهمته.

"فؤاد بيه".

قالهـــا كأنـــه انتشـــل من الغرق "ضابط يسأل عن حضرتك يا أفـــندم"، وقـــبل أن يكمل كلامه انتزع منه الضابط منه سماعة الهاتف بعنف وقال بلهجة آمرة:

"أنت مطلوب في النيابة حالاً".

"عندما تذهب ستعرف".

"نيابة جنوب القاهرة... ومعي أمر بإغلاق الشركة سأنفّذه فوراً".

أعطى الضابط السماعة لمحسن وصوت فؤاد مسموع بوضوح يحاول أن يتفاهم معه، ووضع محسن السماعة على أذنه وهو مذهول مما يحدث ثم وضعها لينهي المكالمة. تأبط محسن عم شفيق الذي بقي صامتاً لا يدري ماذا يفعل وخرجا... فأشار الضابط للجنود فخرجوا وأغلقوا الباب... ووضعوا عليه أختام الشمع الأحمر.

وتلاشى غبار انطلاق السيارة وهي تغادر المكان... وبقيت الأسئلة.

القاهرة

الكهف

1

غـــادر فــؤاد عـــبد القادر منــزله مبكراً على غير عادته دون أن يتهاون في شيء من مظهره المتأنق دائماً، فهو وإن كان في النصف الثاني مــن العقــد السادس من العمر إلا أنه يردد منذ فترة أنه في المرحلة التي ســيقطف فــيها ثمــرة سنوات العرق، وما الشقة الجديدة في ضاحية المهندســين الراقــية والمفروشات الفرنسية الراقية التي فرشها وكلفته ما يقــارب المليون جنيه إلا استجابة لهذا النداء الذي يلح عليه منذ سنوات ليســتمتع بثروته التي تحولت من عدة مئات من الآلاف ورثها عن أبيه إلى عدة ملايين خلال سنوات لا تتعدى العشرين عاماً.

ركـــب فؤاد عبد القادر سيارته الميتسوبيشي السوداء الجديدة ولم يــتفقدها كمـــا كـــان يفعل يوم منذ اقتناها قبل أقل من شهر بل أدار محركها وامتدت يده لتفتح الراديو كما اعتاد يومياً غير أنه كان راغباً في أن يفكـــر في المفاجـــأة التي تنتظره فأغلقه بشكل عصبي، مرت الدقائق بطيـــئة عصـــية مرعـــبة حتى وصل إلى نيابة جنوب القاهرة. نـــزل من ســـيارته أمـــام مـــبنى النيابة ودلف إليه كأنه يدخل كهفاً ضخماً مليئاً بالخفافـــيش، رعـــب.. رعب غريب لا يدري لـــه سبباً كان يجتاحه... كأنـــه يساق مقيّداً إلى مذبح ليقدم قرباناً لإله يوناني أرعن لا يرضيه إلا إنـــزال الكـــوارث بـــأي بريء. زاغ بصر فؤاد وهو يبحث في الممر الطويـــل نصـــف المعتم عن مصدر للإحساس بالأمن... وجه يعرفه... صوت يناديه.. أي بصيص من نور في هذا الكهف المظلم.

امتلأت أذناه بطنين خفافيش فصار يرفع يده بشكل لاشعوري كل

فترة ليتقي خطراً لا يعرف مصدره، لم تمر اللحظات ثقيلة، بل لم تمر مطلقاً... توقّف الزمن وكادت تتوقف معه دقات قلبه ثم تسارعت الدقات وازداد الخفقان. فكّر فؤاد عبد القادر للحظات أن يستدير ويخرج من باب المبنى ويهرول هارباً، لكن إلى أين يهرب؟ ومم يهرب؟

إنه الحدس الملعون الذي استولى عليه منذ دقّ جرس الهاتف بالمكالمة المشؤومة، وبدأ يكلم نفسه دون أن يدري: **"إحساسك لا يكذبك يا فؤاد... لقد انزلقت قدمك في بئر لا قرار لها".**

وعملت غريزة البقاء عملها فحاول أن يطمئن نفسه.

"ما كل هذا الرعب يا رجل؟" ثم ربتت يد على كتفه فانتفض كعصفور مذعور هاجمه المطر وهو بعيد عن عشه... وتفصد العرق من جبينه غزيراً بارداً. لم يكن في حاجة إلى مرآة ليرى وجهه فيها فقد رأى ملامحه في نظرة محاميه الذي اتسعت عيناه من الدهشة.

"ما كل هذا الإحساس المخيف الذي يكسو ملامحك يا فؤاد بيه؟".

وخرجت الكلمات من بين شفتي فؤاد عبد القادر ممزوجة بالأسى والضعف: **"لا أدري يا أستاذ خالد... إحساس بالخوف الشديد لم يفارقني منذ كلّمت الضابط الذي أغلق مقر الشركة... وما يزيد خوفي أنني اعتدت ألا يكذبني إحساسي".**

مدّ خالد يده في جيبه في هدوء وأخرج منديلاً جفف به عرق فؤاد بيه برقة، وأخذ يحدثه في هدوء وثقة: **"اسمع يا فؤاد... نحن مرتبطان بعلاقات عمل وصداقة منذ أكثر من خمسة عشر سنة... وأنا أعرفك جيداً... كما أنني محاميك وبحكم هذه العلاقة أنا مطّلع على الموقف**

القـــانوني لكل أنشطة الشركة وهذا مطمئن... أما هواجسك فلا مبرّر لها على الإطلاق وينبغي ألا تستسلم لها".

هـــدأ فـــؤاد عـــبد القادر إلى حدّ ما وبدأ يستجمع شجاعته وقال لمحاميه: "اسمع يا خالد... رغم أنني لم أرتكب في حياتي عملاً غير قانوني مهمـــا كان بسيطاً منذ أن ورثت هذه الشركة عن أبي، إلا أنني أحس بسحاب أسود كثيف يقترب مني ويوشك أن يحيط بحياتي".

قالها فؤاد وعيناه ثابتتان وغائمتان.

"هـــذا الـــذي تقوله غريب يا فؤاد" وغيّر خالد – عمداً – نبرة صوته لتكون أكثر عقلانية: "ولكن ما علينا... اسمع يا فؤاد.. هل هناك أي شواهد تجعلك تستسلم لهذا الحدس؟".

بلـــع فـــؤاد ريقه بصعوبة و لم يجب، وبدأ خالد نفسه يتسرب إلى نفســـه شـــيء مـــن القلق فقال: "كمحام ليس لدي ما أقوله... لكن كإنسان لدي الكثير لأقوله".

أمســـك خـــالد بـــذراع فؤاد برفق ليستنبط شيئاً من الطمأنينة في صحراء خوفه المظلمة وقال: "العلاقة بيننا أعمق بكثير من علاقة المحامي وموكلـــه... وهذا الشعر الأبيض الذي نبت في رأس كلينا شاهد على هذه العلاقة... حدّثني كصديق".

راح فـــؤاد عبد القادر في عالم بعيد وتكلم كما لو كان يصرخ من بـــئر عميق: "منذ أيام رأيت حلماً فظيعاً كنت فيه حبيس كهف مظلم مـــليء بالخفافيش... كان حلماً فظيعاً تكرّر مرات عديدة بالتفاصيل نفســـها... وصـــار مشـــهد الخفافيش وهي تلطم وجهي يطاردني في صحوي، بل أحياناً لا يفارقني".

أخفى خالد تأثراً واضحاً بدا على ملامحه وقال: "أنت يمكن أن تكون معذوراً إلى حدّ ما فهذا حلم مخيف... ولكن ينبغي ألا يسيطر عليك".

"كيف لا يسيطر علي يا خالد؟ لقد سمعت أصوات أجنحة الخفافيش وأنا أدخل هذا المبنى؟".

قطع خالد استرسال الحديث وقال: "لولا ما سيطر عليك من توتر لما كان هذا المكان ملائماً لدردشة من هذا النوع".

قاطعه فؤاد بنظرة منكسرة قائلاً: "أدبك يمنعك أن تسمي الأشياء بأسمائها... ليس توتراً بل رعب.. رعب يا خالد".

"وأنا سأبدد لك هذا الرعب" قالها المحامي وهو يدفع موكله برفق في اتجاه مكتب وكيل النيابة: "لقد دخلت إلى وكيل النيابة قبل حضورك وناقشته.. بشكل ودي وعرفت أن المشكلة بسيطة بل مضحكة".

وسارا متمهلين نحو مكتب وكيل النيابة. وبلهفة من ردّ إلى الحياة من على منصة الإعدام قال فؤاد بلفهة شديدة: "أرجوك يا خالد بدون مقدمات".

"اسمع يا سيدي... اللحم البقري الذي استوردتموه أخيراً نزل الأسواق مكتوباً عليه (لحم بشري مجمد)...".

"يا نهار أسود" انطلقت كالرصاصة الطائشة من بين شفتي فؤاد وتوقف بشكل لاإرادي واستند للحائط. وأكمل خالد كلامه:

"وطبعاً أثار الموضوع رعباً عند أول مستهلك انتبه للعبارة... والتقطها صحفي فكتب خبراً صغيراً في باب مخصص للطرائف، والباقي يمكن استنتاجه بسهولة، وطبعاً جهات التحقيق تشددت في إجراءاتها

بسبب حساسية الموضوع".

"الله يسامحك يا عم شفيق".

قالها فؤاد وانتقلت لهجته من الخوف للأسى الممزوج بالغضب:
"غلطة غبية سوف تكلفنا الكثير".

قاطعه خالد مدفوعاً بالإحساس بضيق الوقت: "فؤاد بيه... المهم الآن إغلاق التحقيق الرسمي وطبعاً قرار الإغلاق غير قانوني لكنه صدر ليوقف حالة الإثارة الشديدة التي صنعها الاهتمام الإعلامي، وكيل النيابة سيأخذ أقوالك وأقوال الخطاط.. محسن كان هنا وأرسلته ليستدعيه فوراً... التكييف القانوني لن يكون مشكلة بإذن الله رغم غرابة الموقف كله... وعموماً وكيل النيابة لا يملك حفظ التحقيق إلا بعد تقرير المعمل".

وصار وجه فؤاد كالبحر الهائج يتقلب من إحساس لآخر... وكلها أحاسيس عاصفة، وصرخ كمن لدغه عقرب: "المعمل؟!".

وأصبح الحوار بينهما كمباراة تنس طاولة متوترة سريعة الإيقاع.
عاد خالد للهجة التهدئة وقال: "هذه مجرد إجراءات يا فؤاد، والمنتج خرج من الحجر الصحي بمستندات سليمة".

استسلم فؤاد عبد القادر للتداعيات المتلاحقة بإحساس قدري عميق وحزين في آن، وقال بلهجة يائسة: "وماذا أيضاً؟".

فردّ خالد محاولاً إضحاكه: "ثم تصدر وزارة الداخلية بياناً رسمياً يوضح للناس أن ما حدث خطأ غير مقصود... وهذا طبعاً سيكون إعلاناً مجانياً لم تحلم به".

وابتلعهما الكهف...

2

ابتسم فؤاد ابتسامة شاحبة مغالباً مشاعره الهادرة واتجه مع خالد إلى مكتب وكيل النيابة، وبدأت أصوات مختلطة تحجب عن كل منهما صوت الآخر وفجأة وجدا أمامهما شاباً يسد عليهما الطريق ويفرض نفسه عليهما بصفاقة: **"خالد بيه"**.

والتفت ناحية فؤاد عبد القادر: **"أكيد حضرته فؤاد بيه عبد القادر"**.

أزاحه خالد بيده وهو يكمل حديثه: **"بهي الأحمدي يا أفندم صحفي بجريدة (المشهد المصري)"**.

وهمس خالد في أذن فؤاد وهما يتقدمان نحو المكتب المغلق ناصحاً بعدم الإدلاء بأي تصريحات صحفية لأي شخص فالصحافة غول يمكن أن يبتلعه، وشفع خالد نصيحته بتأكيد أن هذا الصحفي بالذات هو الذي أثار كل هذه الضجة... وانفتح الباب وابتلع خالد وفؤاد إلى حيث المجهول.

لم ييأس بهي الأحمدي من إمكانية الخروج من هذه القضية بخبطة صحفية كبيرة، فقبل أن يكون صحفياً هو ابن عبد الهادي الأحمدي أحد أكبر رجال الأعمال في مصر، ويعرف كيف يفكر هؤلاء التجار وكيف يستنطقهم، وماذا تخفي سراديبهم: **"لولا هذا المحامي ابن الـ.. ولكن لا بأس... أمامي وقت كاف حتى خروجهم من مكتب وكيل النيابة لأجمع بعض المعلومات عن فؤاد عبد القادر وشركته"**.

كثيرون ممن يعملون في هذا المبنى نصف المظلم يعرفون بهي الأحمدي

صحفي الحوادث الشاطر السخي خفيف الظل، وكلها أسلحة لها مفعول السحر. حام بهي حول بعض كتبة النيابة وموظفيها فلم يخرج بشيء مفيد بسبب غرابة البلاغ، وطال بقاء خالد وفؤاد بالداخل فاحتسى بهي عدة أكواب من الشاي مضطراً، فكوب الشاي والسيجارة والإكرامية مفاتيح مهمة تجعل الأفواه المغلقة تتكلم. لم تكن المشكلة في رغبة الناس في البوح بما لديهم بل كانت المشكلة أن ما لديهم بلا قيمة.

بدأ الجوع يستبد ببهي فغادر المبنى ليتناول غذاءه وفقد حماسه للقصة كلها وقرر أن يفبرك خبراً هلامياً عنها، وركب سيارته وذاب وسط الزحام.

القاهرة

لفحة حنين

1

دقّ جــرس المنبّه وفتح بهي عينيه بصعوبة ومدّ يده إلى المنبّه ليغلقه قبل أن يغفو مرة أخرى ويستيقظ فيجد الساعة تشير إلى الحادية عشرة. رفع الغطاء عن جسده فأنعش البرد حواسه وجلس على طرف الفراش، أغمض عينيه ضاغطاً على جفونهما بقوة أملاً في مغالبة الصداع اليومي. شخصــية بهي الحقيقية تبدو أكثر وضوحاً في شقته فهي ممتلئة بالأشياء الثميــنة لكــن دون معنى، فهو مغرم بالأشياء العابرة... الأصدقاء... الأفكــار... النســاء.. حتى علاقته بالصحافة التي تبدو الشيء الوحيد الثابت هي الأخرى بدأت بصدفة وما زالت علاقة هاو بهواية ممتعة.

مــدّ بهــي يــده على الكمودور المجاور للفراش والتقط الريموت كونــترول وفــتح التلفزيون، عبث بالأزرار حتى لفتت نظره فتاة جميلة تقدم برنامجاً رياضياً نظر بتمعن إليها... لم يكن ما لفت نظره إليها كيفية أداء الــتمارين الرياضــية بل جسد من تؤديها.. تحالفت الكاميرا معه فاستعرضت جسدها ببطء مثير. أطلق صفارة إعجاب مردفاً: "البرامج الرياضية تقدمت جداً!!".

اتجــه نحو المطبخ متثاقلاً.. وقف أمام الحوض المعدني نصف الممتلئ بــالأواني المستخدمة.. أمسك إناءً صغيراً... سكب ما فيه من بقايا قهوة الــيوم الســابق.. وضع الإناء تحت الصنبور وأضاف البن والسكر دون حاجة إلى تركيز فقد اعتادت يده هذا الطقس اليومي... وضع الإناء على النار ووقف ينتظر غليانه، فالقهوة بالذات لا تحتمل أي سهو في إعدادها حــتى يكون لها "وش" يكمل تأثيرها البيولوجي في الجسد بالتأثير النفسي لطعم هذا الوش وسمكه.

خـــلال هـــذه اللحظات قفز إلى ذهنه منظر فؤاد عبد القادر وهو يهـــرب مـــنه عـــلى بـــاب وكيل النيابة وداخله إحساس غير مفهوم بالانقباض:

"لا بـــأس.. كـــان يمكـــن أن نخـــرج من هذا الموضوع بخبطة صـــحفية.. خيرهـــا في غيرها... ولكن لماذا تلح على ذاكرتي ملامح هذا الرجل؟ شيء ما في ملامح فؤاد عبد القادر يذكرني بشهاب علم الديـــن.. ياه شهاب علم الدين.. نعم.. إنني لأول مرة منذ سنوات أرى شهاب في الحلم.. الحلم"...

وحاول جاهداً أن يتذكر تفاصيل هذا الحلم دون جدوى.

فارت القهوة فأطفأت الشعلة وأشعلت غضب بهي:

"يووه" قالها وصب القهوة بفتور وانهالت عليه الذكريات:

"شـــهاب علم الدين... ما الذي يحدث.. حادث غريب.. حلم أكثر غرابة؟".

كـــان فتوره لصب القهوة ساخنة في جوفه كما يفعل كل يوم باباً لدخول المزيد من الخواطر. ولأول مرة منذ أن حمل شهاب علم الدين هذا الشـــاب الأسمر ذو الملامح الحادة والنبرة الصادقة الثائرة حقيبته الصغيرة وغادر الشقة التي عاش فيها مع بهي سبعة أعوام لم يفترقا فيها كصديقين حميمين، و لم يلتقيا كعقلين مختلفين تمام الاختلاف، حتى أن بهي كان يشبه علاقتهما بعلاقة الاتجاهات المختلفة في إشارة مرور واحدة تجاورها دائم واختلافها أيضاً دائم.

عـــاد بالذاكرة أربعة أعوام للوراء وتذكر الضمة الأخيرة على باب الشـــقة وهـــو يـــودع شهاب بالدعاء، وتأمل حياته للمرة الأولى منذ

سنوات.. عندما قرر أن يعيشها كما هي وكما هو... علاقات عابرة... منــبّه يوقظ الجسد.. قهوة تركية غليظة القوام توقظ المخ.. ضوء صناعي للعمل ليلاً... ستائر كثيفة ليستطيع النوم نهاراً...

"مــا بالــنا نهرب من كل شيء طبيعي ونفرح بهذا الهرب فرحاً أبله؟".

مــدّ يــده إلى فــنجان من الخزف صب فيه القهوة وعلى وجهه علامــات مزاج متعكّر.. وضع القهوة على منضدة أنيقة عليها زخارف إســلامية محفــورة حفــراً غائراً. كانت القهوة بلونها البني القاتم تجعل الفنجان الأبيض يبدو كما لو كان حلقة بيضاء موضوعة على المنضدة، فــاللون واحد تماماً كأن المنضدة غمست في فنجان قهوة ضخم. ترك فــنجان القهوة وخرج من المطبخ إلى الحمام.. وفعلت "العكننة" الأثر نفسه الذي تفعله القهوة، فهي أيضاً منبّه قوي المفعول.

وقف أمام المرآة وركّب شفرة في ماكينة الحلاقة ليحلق ذقنه، لأول مرة لا ينشــغل بهــي أمام المرآة بتهذيب شاربه وتفقد بشرة وجهه بإمعان شديد كما كان يفعل كل يوم. استدار وأغلق باب الحمام وخلع ملابس النوم وفتح الدش، فاجأته برودة الماء فابتعد بردّ فعل آلي، فتح صنبور الماء الساخن ونزل المــاء عــلى جسده حانياً... استسلم بسعادة غامرة وجرف الماء الدافئ في جــريانه أحاسيس مختلطة بالتوتر والإجهاد والتشتت.. وصفا ذهن بهي تحت المــاء فــأغلق عينــيه واستسلم لخدر لذيذ. أغلق الدش وخرج من حوض الاستحمام ونظر في المرآة وقال بصوت مسموع لصورته في المرآة:

"وما عيب الطقوس اليومية؟... إن هذا الحمام أروع طقس يومي عرفه الإنسان".

قهقــه بشكل شبه هستيري: "يومك أسود يا أستاذ بهي... طالما

بذأته بالتأملات فلن يمر بخير.. ولو كنت في بيت أبي الآن لوبختني أمي لأنني أتكلم في الحمام".

سكت لبرهة ثم بدا كما لو كان قد انتبه لما هو أخطر:

"أتكلم في الحمام... أليس الأخطر أنني أكلم نفسي وهذه علامة من علامات الجنون الرسمي؟".

ودخل هي في حوار مسموع مع نفسه:

"وما المشكلة؟.. الجنون قرين العبقرية".

"لا.. وهل تضمن يا سيد هي أن يكون جنونك عبقرية... الجنون الـــذي يحتفون به هو جنون أدباء الحداثة وما بعد الحداثة، أما جنونك فيمكن أن يكون (عباسية)".

الـــتقط فنجان القهوة من المطبخ واتجه نحو حجرة النوم... رشف رشفة من الفنجان ووضعه على الكومود وعلى وجهه إحساس بالقرف:

"قهوة بدون وش عدمها أفضل".

نظر إلى المنبّه الموضوع على الكومود ووجد الساعة تشير إلى الثانية عشرة إلا الربع فارتدى في سرعة بهلوانية ملابسه التي لا تختلف كثيراً عما في المكـــان... أشياء جميلة أنيقة لكنها كلها في غير مكانها، منـــزل مؤثث بذوق راق تنقصه اليد التي تضع الأشياء في مكانها.

هـــرول إلى المطبخ أغلق محبس الغاز... عاد مسرعاً والتقط أوراقاً متـــناثرة وعلبة السجائر ودسها جميعاً في الحقيبة دون تنظيم، أغلق الحقيبة وهـــو يـــتحرك نحـــو الباب والتقط المفاتيح وفتح لوحة الكهرباء وفصل الكهـــرباء عن الشقة فانطفأ التلفزيون. أغلق الباب ودسّ المفاتيح في جيبه واتجه نحو المصعد.

2

اســتقر المصعد وخرج بهي في نشاط متجهاً للخروج من العمارة، ألقى تحية الصباح على البواب الذي سبقه إلى سيارته الصغيرة ليرفع عنها الغطــاء... فــتح باب السيارة ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس خلــف مقعــد القــيادة وأدار المحرك بينما البواب ينفض الغبار من على السيارة. وفي انتظار أن يسخن المحرك أدار بهي مؤشر الراديو وراح يتجول بين المحطات، أصوات مختلطة بين برامج أطفال وبرامج نسوية وأغاني من كــل لون... لفت نظره صوت مذيعة تتكلم بدلال أنثوي ظاهر، ضبط المحطة كانت المذيعة تتحدث عن بعض الغرائب والطرائف.

انطفأت لمبة إنذار المحرك فبدأ يحرك السيارة ببطء لينبّه البواب الذي ابــتعد ملوّحاً لبهي بالتحية من خلف الزجاج. خرج بالسيارة إلى الطريق ورفع صوت المذياع:

"ألقــت الشرطة صباح أمس القبض على رجل أعمال تسبب في ذعــر كبير بين المواطنين نتيجة خطأ طريف... رجل الأعمال استورد لحمــاً بقــرياً محفوظاً ونظّم حملة دعاية ضخمة لترويج المنتج الجديد، وعندما نزل المنتج للسوق فوجئ المستهلكون الذين تهافتوا على شرائه بوجــود عبارة (لحم بشري مجمد) على عبوات المنتج، رجل الأعمال المشــهور اعتذر عن الخطأ المضحك وينتظر قرار النيابة بحفظ التحقيق أي أن الموضوع أصبح كله (مجمد)".

وأطلقت المذيعة ضحكة خليعة فأطلق بهي عبارة فالتة: "يا بنت الكلب".

منحه الهدوء النسبي في الشوارع فرصة للانتقال بين محطات الإذاعة وتوزيع عبارات الاستحسان والاستهجان هنا وهناك.

مـــن ميزات أن يعمل المرء صحفياً أن ينـــزل في موعد متأخر نسبياً عـــن موعـــد نـــزول الموظفين إلى أعمالهم فيكون مصعد العمارة خالياً والشـــوارع أقل ازدحاماً، ففي مدينة كالقاهرة ينتقل الناس كل الناس في موعـــد واحد تقريباً، ويصبحون في شوارعها كما لو كانوا شعباً بأكمله يهـــرب مـــن جـــيش معـــاد.. أرتال من السيارات تتدفق في كل اتجاه وصيحات استنكار.. وأحياناً سباب من نوافذ السيارات. وحافلات نقل عـــام مكتظة ببشر يظلّ خدر النوم من عيونهم وتطفح ملامحهم بالبؤس.. يبدون في عبوسهم كأنهم استيقظوا فزعين إثر هزة أرضية أخرجت الجميع إلى الشارع. دورة جهنمية تآلف الناس مع عذاباتها بصبر أسطوري عصي على التفسير.

طـــارده الخبر نفسه في محطة أخرى يذاع بصيغة ساخرة قريبة من الســـابقة فشـــعر بالتقزز الشديد وسرت في بدنه قشعريرة، وبدأ يجتاحه حدس بأن هذه القصة ستعترض طريقه مرة أخرى... وفي شروده لم ينتبه إلى ســـيارة مسرعة تعترض طريقه وتطلق عجلاتها صوتاً حاداً يعيده إلى وعيه. تحمّل ببرود عبارات قاسية من سائق السيارة الأخرى وبعض المارة وســـار في طريقه وهو يتمتم: "اليوم من أوله لا يبشّر بأي خير... ربنا يستر".

3

عـــاد بهي من العمل مشتتاً فاندفع للحمام بحثاً عن الهدوء والسكينة في دفء المـــياه.. خرج من الحمام فاندس تحت الفراش مستكيناً ومدّ يده للريموت كنترول ليستدعي صديقه الوحيد... عبثت يده بالأزرار بحثاً عن شـــيء ممتع... ولم يجد أكثر إثارة من الإعلانات فهي في النهاية مشاهد متوالية لا يجمعها رابط، ولا تستحث العقل على التفكير في شيء ورائها. حرّك مؤشر الصوت ليخفضه وامتدت يده إلى الوجبة الجاهزة التي جلبها معـــه وبدأ يأكل. والتفت إلى الهاتف بجواره وتذكر أنه في الصباح خرج دون أن يفتح "الأنسر ماشين" ليسمع الرسائل الصوتية.

كانـــت هناك رسالة صوتية واحدة تتكرر لأكثر من عشر مرات، تـــنهدات نسائية حارة وجملة واحدة: **"يا عم رق.. يا سيدي ميل.. يا حبيبي ما يصحش كده"**.

أطربـــته الرســـالة وشـــعر بـــزهو الانتصار: **"هذه بعض خسائر الـــتأملات.. كان يجب أن أتصل بها لأراها الليلة.. سامحك الله يا عم شهاب"**.

وقـــبل أن يـــيأس بهي من أن يستمع إلى رسالة أخرى في الشريط المملـــوء بالتنهدات جاءه صوت رئيس القسم ملهوفاً: **"ألو... ألو.. بهي إذا كنـــت في المـــنـــزل كـــلمني فـــوراً.. سأنتظر منك اتصالاً بمجرد عودتك.. مؤنس.. سلام"**.

اعتدل بهي في جلسته وأعاد سماع الرسالة مرة أخرى كما لو كان غير مصدق، واكتست ملامحه بجدية شديدة: **"غريبة.. هذا لم يحدث منذ**

أن عملت في الجريدة.. ما بال المفاجآت تتوالى في هذا اليوم الغريب!".

رفــع الغطاء عن جسده وفتح حقيبته الجلدية وأخرج منها فهرس أرقام التليفونات وعاد إلى السرير، لكن أقل استرخاء. طلب رقم مؤنس ثم نظــر في المنبّه الموجود على الكومود أمامه فانتبه إلى أن الوقت تأخر، لكن صوت الأستاذ مؤنس ردّ بسرعة بما يعني أنه لم ينم: "مساء الخير يا أســتاذ مؤنــس.. أنا آسف لأنني أطلبك في هذا الوقت لكنني لم أعد للمنــزل إلا الآن".

صــدق حدس بمي وكانت هناك بالفعل مفاجأة: "كنت في انتظار مكالمــتك ولم أنم... مفاجــأة يا بمي.. الجريدة تلقت قراراً من وزارة الإعلام بحظر النشر في قضية اللحم البشري المستورد".

وجــاء ردّ بمي ملتعثماً: "قضية إيه؟... أستاذ مؤنس.. أنا نفسي كنت في النيابة وكل الكلام كان عن خطأ غير مقصود.. أصبحت الآن قضية تجارة في لحوم بشر بالفعل؟... كيف؟".

وارتفــع صوت بمي منفعلاً دون أن يقصد، وأوقفه مؤنس بلهجة صارمة: "التليفون لا يصلح؟".

"لماذا؟".

"ليكن... في الصباح بإذن الله أكون عندك.. لا.. لا التاسعة بإذن الله".

أغلــق الهاتف وتيقظت حواسه كلها وهو يحاول بصوت مسموع ترتيب الحوادث على نحو يعين على فهمها: "خطأ في كتابة البيانات على منــتج أمر لا يتكرر كل يوم لكنه وارد.. لكن أن تتحول المزحة التي أوردتهــا الجــرائد والإذاعــات ضمن الطرائف إلى حقيقة، فهذا غير

مفهوم.. وما كل هذا الاهتمام والحذر في حديث الأستاذ مؤنس؟".

صمت لبرهة وثبتت نظرة عينيه ثم قال: **"لحم بشري.. يا نهار أسود.. هذا يومك يا شهاب... كنت تتحدث عن عالم يأكل بعضه لحم بعض على سبيل المبالغة وأصبحت المبالغة حقيقة.. لكن لا.. من المؤكد أن في الأمر خطأ ما".**

اختلط الفضول الذي هو مرض مهني – فوق كونه طبيعة بشرية – بالصورة التي كان شهاب يرسمها للعالم وكان بهي دائماً يراها سوداوية متشائمة.

غادر بهي الفراش وهو يتمتم: **"يبدو أنه لا مفر"..**

اتجه إلى الدولاب وأخرج منه حقيبة قديمة تركها شهاب يوم غادر منزلهما المشترك لآخر مرة متجهاً لبيروت... أوراق كثيرة لم يفكر بهي أن يقرأها أبداً، كان يخاف أن تتبدل نظرته للعالم بفعل أفكار شهاب التي كانت.. أحياناً تبدو غريبة.. وأحياناً متشائمة.. وأحياناً حادة.. وغالباً ما تكون خليطاً من هذا كله. فتح بهي الحقيبة فوجد مجموعة من الصور تجمعه مع بهي وأخرى تجمعهما مع زملاء آخرين. تستوقفه عيون شهاب ونظرته الواثقة.

وبدأ يتصفح الأوراق لا بحثاً عن شيء بعينه بل بحثاً عن شيء لا يعرفه.. كان ممتلئاً بالثقة بأن الأفكار التي طالما جادل صديقه فيها تحمل إجابات عن أسئلة كثيرة فشل في وأدها، أو وأدها وخرجت من تحت الرماد شاخصة تستعصي على التجاهل:

"لو جعل كل منا جلده حدود عالمه لتحول هذا العالم إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف.. أليس هذا كلامك يا شهاب".

وضع بهي الأوراق محاولاً وقف متوالية الانفعال والقلق التي استولت عليه بعد مكالمة مؤنس متسائلاً: **"حتى لو صح ما قاله الأستاذ مؤنس بحذافيره.. هذه في النهاية جريمة فردية... ولكن.. لو كانت جريمة فردية، فلماذا كل هذا الحذر الذي أبداه إزاء الحديث في التليفون؟"**.

عاد بهي إلى جلسته المسترخية على الفراش وأخذ حقيبة الأوراق بجواره وبدأ يتصفحها ويصنّفها.. لم يكن يتخيل أن يكون شهاب شغوفاً بالشعر كل هذا الشغف... ربما لأن الشعر كان في سنوات الدراسة هو فقط ما يمكن كتابته على بطاقة تهنئة أو في رسالة غرامية لفتاة. حتى الشعر عندك له مفهوم مختلف ومذاق مختلف...

ودخل بهي لأول مرة عالم شهاب علم الدين بعد أن حاول شهاب نفسه لسنوات أن يأخذه معه فيه، دخله زائراً مستكشفاً، فاكتشف أن الكثير مما كان يقوله شهاب عن المسؤولية الإنسانية الأخلاقية إزاء العالم أمر بديهي، وأن الكثير من الأفكار من كثرة ما تلوكها الألسنة في صياغات باهتة تفقد حرارتها.

لم ينتبه بهي إلى أن النهار قد أشرق منذ أكثر من ساعتين إلا عندما دقّ جرس الهاتف ورفع السماعة ليجد الأستاذ مؤنس على الطرف الآخر: **"صباح الخير يا أستاذ مؤنس"**.

ونظر في الساعة فوجدها تشير للثامنة صباحاً. أكمل المكالمة بردود مقتضبة ووضع السماعة. اتجه للنافذة وأزاح الستائر عنها ولم يدهشه منظر الكون في هذه الساعة رغم أنه لم يره منذ سنوات اختلف فيه إيقاعه عن الإيقاع الكوني الطبيعي، بقدر ما أدهشه أن يقضي كل هذه الساعات مستيقظاً دون الاستعانة بفناجين القهوة ذات القوام الغليظ.

انكسرت حلقة الطقوس الصارمة من حوله في لحظة.. وشعر أنه

أخـــف وأكثر حرية... انطلق إلى الشارع حاملاً حقيبته بعد أن ارتدى ملابســـه دون أن يشـــعر تقريباً، وترك سيارته حتى لا يضطر لانتظار أن يســـخن الموتور، وهرباً من أن يستجمع تركيزه المشتت ليقود السيارة في شـــوارع القاهـــرة في ساعة من أقصى ساعات الذروة. اتجه البواب إلى الســـيارة ليرفـــع عنها الغطاء ولكن بهي لم يردّ تحيته، بل لم يره... واتجه للشارع. أوقف سيارة تاكسي وركب دون أن يشرح للبواب معنى التغيير في الموعد والطقوس. وانطلقت السيارة تقطع الشوارع المزدحمة، بينما بهي الأحمدي يتحوّل فضوله بالتدريج إلى قلق.

4

انطلـــق بهي كالسهم داخلاً مبنى الجريدة دون أن يتوقف للتوقيع أو ردّ تحــية موظــف الاستقبال، اتجه مباشرة لمكتب مؤنس وكانت لهفته لمقابلــته لا تقــل عن لهفة مؤنس: "من المؤكد أنك دعوت علي لأنني أيقظتك مبكراً على غير عادتك" قالها مؤنس متلطفاً.

"أنا لم أنم يا أستاذ مؤنس.. وأرجوك أن تشرح لي ما حدث دون أي مقدمات أو إبطاء".

بــدأ بهــي حديــثه من على باب الغرفة وأطاح بحقيبته بعيداً بغير اكتراث وجلس متحفزاً أمام مؤنس:

"أنا غادرت النيابة بالأمس وفؤاد عبد القادر ومحاميه عند وكيل النــيابة.. ولما تأخر خروجهما ذهبت لتناول الغداء ونسيت الموضوع كله وعدت للمنــزل في المساء... فما الذي حدث منذ غادرت النيابة حتى الآن؟".

وبــدأ مؤنس حديثه وبهي منتبه بكل حواسه: "وكيل النيابة كان مــتّجهاً لحبس فؤاد عبد القادر على ذمة القضية أولاً لأنها قضية رأي عــام.. المحــامي أصر على اعتبار الأمر مجرد خطأ في كتابة البيانات، وبالــتالي حدث بحسن نية، لكن تقدير حسن النية في نظر وكيل النيابة كان متوقفاً على نتيجة تقرير المعمل، وطبعاً أي وكيل نيابة تكون أمامه قضية رأي عام يتصرف فيها بيد مرتعشة ويميل للتشدد".

اعتدل بهي في جلسته وقال: "طبيعي.. حتى الآن لا مشكلة".

مدّ مؤنس يده لعلبة السجائر الموضوعة أمامه وأشعل سيجارة وأشار

لبهي بواحدة فأخذها دون تعليق ومؤنس يستمر في السرد: "محامي فؤاد عبد القادر طلب من وكيل النيابة الإفراج فرفض، وثار نقاش قانوني انتهى إلى ضرورة الحصول على تقرير المعمل أولاً... وبدأ فؤاد ومحاميه اتصالات على أعلى مستوى، لأنهما اعتبرا أن حبس فؤاد على ذمة القضية إساءة لشخصه ولشركته".

وأراد بهي أن يقاطعه فأشار إليه مؤنس بيده وأكمل: "أرجوك.. اسمع أولاً.. في النهاية تمّ الاتفاق على إجراء تحليل أولي في اليوم نفسه على أن تستكمل التحليلات بعد صدور قرار الإفراج عنه، قبل الطرفان هذا الحل الوسط، وكانت كل الأطراف تعتبر نتيجة التحليلات تحصيل حاصل.. المفاجأة كانت أن نتيجة التحليلات المبدئية سلبية وأكدت وجود بقايا لحم بشري في المنتج الذي يستورده فؤاد عبد القادر".

ولم يستطع بهي أن يكتم حيرته واستغرابه لما يسمع فقاطع مؤنس: "ولكن فؤاد عبد القادر ومحاميه ليسا ساذجين ليطلبا هذه التحليلات إلا إذا كانا متأكدين من سلامة موقف فؤاد القانوني، كما أن فؤاد عبد القادر ذهب للنيابة بنفسه ولم يقبض عليه، كان أمامه فرصة كافية للهرب لو أراد".

تصرف مؤنس كما لو كان يتجاهل محاولة بهي لإخضاع ما حدث للتحليل المنطقي وألقى قنبلة أخرى: "فؤاد عبد القادر أصبح خارج الموضوع تقريباً.. وربما بشكل نهائي".

وبدا الأمر أكثر استعصاء على الفهم بالنسبة لبهي فقال: "هذا أغرب.. كيف وهو المستورد؟.. إنه المسؤول الأول".

عاد مؤنس لسرد الأحداث في تتابعها المثير فقال: "فؤاد عبد القادر

أصيب بانفجار في شرايين المخ بمجرد علمه بنتيجة التحليل.. وهو الآن في المستشفى في غيبوبة تامة".

وألحت على بهي فكرة المؤامرة بشكلها الساذج وقال: "وهكذا تدفن معه الحقيقة... ربما كان مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟".

"فؤاد عبد القادر لم يعد المشكلة.. والخيوط التي ظهرت خلال ساعات عقّدت الموقف بدرجة لم تكن متوقعة".

وتساءل بهي: "أية خيوط.. هل هي رواية بوليسية يا أستاذ مؤنس؟".

واستطرد مؤنس: "النتائج لخطورتها الشديدة قبل إبلاغها للنيابة العامة تمّ إبلاغها لجهات عليا.. ويبدو أن هناك من تبرع بإبلاغ سفارة فرنسا التي دخلت الخط بسرعة طالبة وقف النشر عن الموضوع".

وألحت الأسئلة على بهي فقاطع مؤنس من جديد: "فؤاد عبد القادر استورد المنتج من تايلند فما دخل فرنسا؟".

"هذا مربط الفرس" قالها مؤنس وتنهد وبدأ يتكلم بلهجة أقل إثارة مشيراً بيديه على سطح المكتب كما لو كان خريطة مرسومة: "المنتج المستورد تنتجه شركة فرنسية عابرة للقارات رأسمالها فرنسي وإدارتها في بيروت ومصانعها موزعة في عدة دول منها تايلند.. لكن العلامة التجارية فرنسية والشركة تعتبر تايلند مجرد مكان ملائم للتصنيع والتغليف بسبب الأيدي العاملة الرخيصة والتسهيلات القانونية".

وانتبه بهي متأخراً جداً إلى أن ما توفّر لمؤنس من معلومات غزيرة عن موضوع كهذا محظور النشر فيه هو الآخر غريب فقال: "ومن أين لك كل هذه المعلومات الدقيقة في هذا الوقت المحدود؟".

ابتسم مؤنس وقال: "سؤال مهم لكن الإجابة عنه تأتي بعد

إطلاعـــك على بقية التفاصيل". واستطرد مؤنس: ".. حظر النشر يعني حظـــره في مصـــر فقـــط، وهو سيدفع الناس للبحث عن الحقيقة في الشـــائعات.. الأرجـــح أن تنـــتهي الدعوة القانونية بموت فؤاد عبد القادر.. أو بالعفو عنه لأسباب صحية ليس هذا هو المهم".

وتساءل بمي في هدوء أحدثته الصدمات المتوالية: "فما المهم إذن؟".

واكتسى صوت مؤنس بنبرة حماسية واضحة وانتقل من على مكتبه لـــيجلس بجـــوار بمي وقال: "المجد المهني... وهذا يتصل بسؤالك عن مصـــدر معلوماتي، فهناك جهات عديدة منافسة لهذه الشركة، ومنها شركة عابرة للقارات أميركية الجنسية قررت تمويل إيفاد صحفي لجمع معلومـــات عـــن الأمر، وسيكون الاتفاق من خلال وكالة أنباء عالمية تنشـــر سلســـلة مـــن التحقيقات المصورة عن حقيقة القصة المثيرة في صحف عديدة بلغات مختلفة.. أنا لا أستطيع السفر بنفسي لأنني مثقل بارتباطات عائلية ومهنية.. كما أن هذه المهمة تحتاج إلى شاب طموح مثلك... وقد رشحتك للسفر... على أن أقوم أنا بتوفير معلومات من مصادر أخرى وأتولى صياغة المادة وإعدادها للنشر.. و...".

ووصل العرض المغري للحظة الذروة: "والمكافأة المقترحة عشرون ألف دولار غير مصاريف السفر والإقامة... والمكافأة ستكون مناصفة بيننا".

لم يفشـــل مؤنـــس في إثارة فضول بمي وحماسه، لكنه كان على المســـتوى الشخصي على أعتاب تحول حقيقي جعله يفكر لأول مرة في حـــياته أن يتصـــرف انطلاقـــاً من استشعار مسؤولية أخلاقية وإنسانية، صـــحيح أن العـــرض المغري الذي يقدمه مؤنس هو في النهاية جزء من

آليات المنافسة الاقتصادية الشرسة التي لا قلب لها ولا أخلاق، لكن بإمكانه أن يحقق أهدافاً يراها نبيلة ولا تتعارض مع أهداف مموّلي المشروع.

أسباب كثيرة جعلته يعرف قيمة الصمت والتروي بعد أن كان مثالاً للسرعة في الفعل وردّ الفعل والانفعال، يتكلم بسرعة.. يحب بسرعة.. يشتهي بسرعة.. يمل بسرعة.

وطال صمته على غير المتوقع فباغته مؤنس بسؤال: **"هل أنت خائف يا بهي؟".**

وخرج ردّه واثقاً: **"إطلاقاً... ولكن الأمر كله مفاجأة كبيرة ومربكة..".**

ركّز بهي نظره على النافذة المفتوحة خلف مؤنس للحظات كأنه يقرأ خلالها: **"أنا موافق... ما المطلوب؟".**

وابتسم مؤنس ابتسامة المنتصر وقال: **"أرسل إليّ بالفاكس الصفحات الأولى من جواز السفر وسأتولى ترتيب كل شيء".**

نهض بهي وحمل حقيبته وغادر الحجرة وهو يلتفت إلى مؤنس: **"خلال ساعة على الأكثر تكون عندك... وطبعاً ستكون هناك جلسات قبل السفر للإعداد".**

واختفى بهي سريعاً.

5

أسبوع عصيب مر على بهي غيَّر فيه جلده تغييراً كاملاً.. كان لديه قناعة راسخة بأن خيط البداية هو في أوراق شهاب علم الدين، فصحافة الفهلـــوة التي مارسها لسنوات لم تمنحه الإثارة التي كان يحلم بها، وكان دائماً يشعر أن ما بها إثارة "مغشوشة" تعتمد على سعة خيال الصحافي... على قدرته على تلفيق ما يشعر القارئ بشعور زائف بالاندهاش لا على اكتشـــاف مـــا يدهشه فعلاً، بل أحياناً كان يشعر أن المزيد من الإثارة يتطلـــب بالضرورة القليل من رقابة الضمير و... "أعذب الشعر أكذبه"، تلـــك كانـــت من العبارات النادرة التي تعلّمها من شهاب وحفرت في ذاكرته، لأن تجربته الصحفية علّمته أنها قاعدة ذهبية في الممارسة الصحفية في مصـــر، ولولا يقينه بأن العرب الجاهليين لم يعرفوا الصحافة، لظن أنها قاعدة مهنية حرّفها الرواة.

غـــرق بهي الأحمدي في أوراق شهاب علم الدين فابتلعته وفتحت مســـام عقله لشبق ضخم للمعرفة. كان السفر مغامرة مهنية للبحث عن المتاعـــب والمال والشهرة وأصبح لفحة نارية من الحنين أحرقت العاشق الذي دخل عالم العشق ببراءة ساذجة كبراءة الفراش. اختار بهي في لحظة واحـــدة أن يحرق جسر التنهدات الذي التهم أكثر من عشرة أعوام من عمـــره، وأن يعـــبر جســـر القلق الذي فتح باباً للمجهول والخطر وربما الموت...

أمـــده مؤنـــس بأوراق مترجمة ترجمة عجلى عن الشركة الفرنسية وتـــنقّل بـــين هذا الملف الصغير وبين أوراق شهاب، شيء ما بدأ يربط

بيـــنهما لا يدركه على وجه الدقة، وينتبه بهي في برقة حدس مفاجئة إلى وجـــود هـــذا الخيط الدقيق بين أوراق شهاب والملف الذي أعطاه إياه مؤنس.

وبدأ يبحث في أوراق الشركة الفرنسية التي استورد منها فؤاد عبد القادر صفقتـــه المشؤومة، اسم الشركة: **سامبـــل إتش كـــي** (SAMBL.HK.) أسســـها عام 1890 مجموعة من الشركاء بينهم الجـــنرال ســـانت أرنو أحد قادة الجيش الفرنسي المتقاعدين. تولى رئاســـتها عام 1911 ابنه بيير، وتحت رئاسته توسعت أعمالها خارج فرنســـا. ومنذ تولى رئاستها جورج بيير دي سانت أرنو عام 1955 وهي تدار من بيروت حيث اختار جورج أن يعيش.

"ليس مجرد قائد عسكري متقاعد ضمن مجموعة مستثمرين إذن".

تمـــتم بهي الذي أصبح دون أن يشعر يرى العالم بعيون شهاب علم الديـــن: **"إنها ثكنة عسكرية فرنسية واصل قادة الاستعمار الفرنسي في الجزائـــر مـــن خلالهـــا حـــربهم لكن بطريقة أخرى، وفضّلوا التوقيع بالأحـــرف الأولى، فاســـم الشـــركة مكـــوّن من الحروف الأولى من أسمائهم".**

ومـــرت أصابعه على أسماء الجنرالات/المستثمرين منتقلاً بين الملف الـــذي أعطـــاه إياه مؤنس وبين الكتاب الذي تركه شهاب علم الدين مخطوطاً، و لم يكن الاختلاف إلا في ترتيب الأسماء:

جي بليسيه

سانت أرنو

دي شانجارنييه

إم هيريسيون

جي مونتانياك

إي لاموريسيير

أر كافينياك

شعر بهي أنه أمام جبل جليد عائم لم تكن تبدو منه إلا قمّته الطافية على وجه الماء... جبل جليد ضخم يكتسح كل ما يواجهه بلا رحمة... ألقى الأوراق وفتح حقيبة شهاب كالمجنون.. أزاح الصور وقصائد الشعر بعيداً، وبدأ يقلّب في مسودة كتاب كان شهاب مشغولاً بإعداده قبل أن يتخذ قرار السفر لبيروت "**فرنسا في الجزائر: رسائل الجنرالات والجنود**".. لم يكن في حاجة للبحث كثيراً فشهاب كان يعرفهم ويطاردهم ويجمع أدلة إدانتهم، حتى قبل أن يرتكب العم شفيق خطأه الذي نزعت صدفته القناع عن عالم بأكمله.. إنهم جنرالات الحرب الفرنسية السابقين في الجزائر.

تسمّر بهي على السرير وجاءه صوت شهاب مختنقاً بعبرة بكاء حار:

"كتب الكونت ديريسيون في خطاب إلى ذويه: لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات.. لقد عدنا ومعنا برميل مليء بآذانهم التي قطعناها من الأسرى"...

وكتب مونتانياك: "لقد قطعت رأسه ومعصمه الأيسر ووصلت برأسه مثبتاً على رمحي ومعصمه عالق ببندقيتي وقد أرسلته إلى الجنرال باراجوي الذي كان يعسكر بالقرب منا، وإنك لا تتخيل كيف كان ابتهاجه بذلك، وكنت أحياناً أفرّج همومي بقطع الرؤوس لا رؤوس الصبار بل رؤوس الرجال".

وكتـــب الجنرال سانت أرنو في خطاب إلى زوجته "إن بلاد بني منصر بديعة وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقراها متقاربة وأهلها مـــتحابون، ولقـــد أحرقـــنا كل شيء ودمرنا كل شيء،.. الحرب!! الحرب!! أواه منها ما أكثر من هلك فيها من نساء وأطفال هاجروا إلى جـــبال الأطلسي فقضوا نحبهم فيها بين ثلوجها بتأثير البرد والبؤس... إني أفكـــر فيكم جميعاً وأكتب إليكِ يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقـــد مـــررنا عند قبيلة البراز فأحرقت أفرادها جميعاً ونشرت حولها الخـــراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع، لكأني في سرداب تكثر فيه الخيرات".

وفي رســـالة أخرى يقول: "ما أجمل أشجار البرتقال التي سأعمل الآن عـــلى اقـــتلاعها، إني أنشـــر اليوم الحرائق في ممتلكات ابن سالم وقراه".

أصـــبح الفـــراش الوثـــير أقرب إلى قنفذ ضخم... تقلّب بهي... وتزاحمـــت الأفكار والمشاعر واستسلم لعالم الدم الذي دخله على غير موعـــد، هو الذي فرّ من عالم البزنس مع أبيه بحثاً عن مهنة أكثر بريقاً وإنســـانية، قادتـــه تداعـــيات هذا اليوم العجيب إلى عالم من الأساطير المرعـــبة يقود بعضها إلى بعض. ورغم أن عالمه كصحفي هو ما يحدث الآن إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الإمساك بالخيط الذي عثر عليه في أوراق شـــهاب، ومـــن الواضح الآن أنه خيط متّصل يجمع سانت أرنو وحفيده جورج بيير دي سانت أرنو.

دقّ جـــرس الهاتف فتذكّر بهي أنه ينتظر مكالمة مهمة من مؤنس.. تـــبدّد إيقاعه القديم، لم يعد سابحاً في فراغه المتخم بمشاغل وهمية وأشياء تافهـــة عارضـــة.. أصبح أكثر انشغالاً لكن أكثر سكينة ويقيناً. كان

مؤنس يتصل به ليطمئنه على تأشيرة السفر لباريس...

رفع بهي السماعة بلهفة وجاء صوت مؤنس خفيضاً محبطاً يخلو من الإحســـاس الغامر بالإثارة الذي طالما شاع فيه طوال الأسبوع الماضي:

"أهلاً يا أستاذ مؤنس.. هل هناك جديد..".

صمت بهي وهو يسمع عبارة طويلة من مؤنس قبل أن يقاطعه قائلاً:

"أياً كان الأمر سأسافر على نفقتي".

"... لا داعـــي للاعـــتذار يـــا أستاذ مؤنس، أنا أقدّر حساسية الموقف".

وضـــع بهي سماعة الهاتف وأغلق مصباح الغرفة.. واكتفى بمصباح جـــانبي صـــغير وأزاح الأوراق الخاصة بالشركة، وغطى جسده بغطاء خفـــيف ومـــدّ يده في حقيبة أوراق شهاب التي خرجت من الدولاب لتصـــبح جـــزءاً من حياة بهي بشكل دائم.. وأخرج من الحقيبة شريط كاسيت احتفظ به منذ أن غادر شهاب الشقة.. لم يفكر قبل هذه الليلة في الاســـتماع إلـــيه.. كل ما يذكره أن هذا الشريط سجل عليه شهاب بعـــض أشعاره بصوته وتركه في الحقيبة... مجرد تذكار.. كان في حاجة حقيقية لأن يستعيد صوت شهاب علم الدين حقيقياً طازجاً لا من خلف حُجُب التذكر.

وضـــع الشـــريط في جهاز التسجيل وضغط على زر التشغيل... أغمض عينيه وجاءه صوت شهاب واضحاً صادقاً:

بيروت سيدةٌ

تعطّر مفردات قصيدتي

وتنام فوق دفاتر الذكرى

إذا ملّت عيون الثاكلات من البكاء

...

بيروت

يا أجمل الأحلام في صحو وفي نوم

ويا شرف القبيلة

يا جرحنا الدامي وطفلتنا الجميلة

أحرقت أطفال المخيم كلهم

من أجل من؟

وسرقة خارطة البلاد

وشارة اللقيا

وأغنية الوطن

وتركتنا جزراً مشتتة

وأحرقت السفن.

بيروت

.. وتعطرت للموت

1

لم يكن مطار بيروت مفتوحاً فاضطر هي الأحمدي للسفر جواً إلى دمشق ليسافر منها إلى بيروت براً، وكان الإجراء الاحترازي الوحيد الذي استطاع اتخاذه أن يسافر صباحاً بحيث يصل إلى دمشق بعد الظهر ويستطيع السفر منها نهاراً. ركب الطائرة حاملاً عدداً من مجلة لبنانية استلها من بين أوراق شهاب آملاً أن يكون فيها أية معلومات مهما كانت سطحية عن هذا البلد الذي يزوره للمرة الأولى، وقد اجتهد خلال الساعات الأخيرة قبل السفر أن يستعين بما استطاع من نصائح الناصحين وخبرات المجرّبين، إلا أنه لم يظفر إلاّ بتحذيرات ومعلومات مبتورة يشفعها أصحابها بعبارة: **"هذا طبعاً قبل الحرب الأهلية أما الآن فلا أعرف ما الذي تغيّر"**.

استقر هي على مقعده وركّز عينيه على المشهد خارج الطائرة وتلاشت التفاصيل من حوله... كان التغيّر الأكثر عمقاً في هي تحوّله من الأشياء إلى الأفكار...عاد بالذاكرة سنوات للوراء عندما غادر شهاب علم الدين الشقة لآخر مرة حاملاً حقيبته الصغيرة مسافراً إلى بيروت. اختار أن يذهب إلى الخطر بنفسه:

"فات أوان النقاش يا هي... وسيأتي يوم تعرف فيه أنني كنت على صواب" جملة ختم بها شهاب محاورات طويلة... كان واضحاً أمام إصراره أنها مناقشات لا طائل من ورائها.. ولكن العبارة تبدو الآن وهي ترن في أذني هي كما لو كانت تميمة خفية علّقها شهاب على الباب و لم تخلع رداء تخفيها إلاّ الآن.. فهو يقرأها ويسمعها، إنها تتحداه وتناديه في

آن واحد.

"أي صواب؟" قالها بضيق وهو يحتضن صديقه الأثير لمرة قد تكون الأخـــيرة وهمـــس شـــهاب في أذنه: "أعرف يا بهي أن فيك نبلاً ونقاءً سأفتقدهما كثيراً".

اهتزت الطائرة في صعودها فانتبه بهي وأدار وجهه عن النافذة وقال بصوت خفيض تعتصره المرارة: "كيف يفقد العالم بهجته وجماله هكذا في لحظة... كيف يبدو وحشياً قاسياً هكذا بلا أقنعة؟".

اصـــطدمت عيناه بفتاة جميلة شقراء جلست بجواره دون أن يشعر وهو في شروده القصير... استيقظت حواسه فشم العطر الأنثوي المثير... وجـــال ببصـــره مـــن خصـــرها الذي يحيط به حزام الأمان إلى ساقيها البيضـــاوين المشـــربين بلون وردي شفيف، واستدار كأن شيئاً لم يكن. كانت مثل هذه المصادفة في وقت آخر كفيلة بأن توقظ القناص القابع في أعماقـــه... لكنه فجأة فقد كل مواهبه في القنص والصيد ونسي نصب الفخاخ.. وهكذا الإنسان إذا زهد فلم يرَ في فريسته إلا قطعة لحم:

"آه... كم أصبحت هذه الكلمة مرة!!".

كان مشهد الأنثى يبعث في نفسه بهجة ونشوة سحريتين... ولأول مـــرة يشـــعر أن النـــزال حُسم لصالح شهاب علم الدين.. حسمه وهو غائب عن ميدان المعركة بالضربة القاضية. لكن المهزوم هذه المرة لم يشعر لـــلهزيمة بمـــرارة، بل كانت ميلاداً جديداً.. ولكل ميلاد مخاض.. ولكل مخاض ألم.

2

لمســته رفيقة الرحلة الشقراء برفق والتفت إليها فوجد المضيفة تدفع أمامهــا عــربة الطعام وتسأل بابتسامة اعتادت أن ترسمها لكل مسافر، فابتسامات المضيفات جزء من خدمة السفر وهي الأخرى مدفوعة الثمن. خــيّرته المضيفة بين اللحم والدجاج فامتعض لأن كلمة "لحم" أصبحت كالوخز المؤلم في جنبه:

"دجاج".

قالها و لم يزد، ومدّ يده ليفتح طاولة الطعام المثبتة في المقعد.

تــناول الوجــبة في فتور وازدردها كأنه يبتلع حجارة... لم يغره التغليف الأنيق، و لم يجبره جوعه الذي فرضه عليه تعجّل الساعات الأخيرة قــبل السفر على أن يأكل بشهية. كان يجتاحه إحساس بأنه يمر بتجربة روحية كتلك التي رواها لــه شهاب أن الفيلسوف المسلم الكبير أبو حامد الغزالي مرّ بها قبل أن يدوّن كتابه الشهير "المنقذ من الضلال".

"لــك الآن أن تهــنأ يــا شهاب.. فكل ما كنت أسخر منه في حواراتنا معاً وأنا سعيد بجهلي هو الآن شوك في حلقي".

ومنحته النعومة الشديدة التي تتحرك بها الطائرة فرصة للتذكر:

"هل تعرف شاعراً اسمه صلاح الدين عبد الله؟".

"لا.. لم أقرأ في الشعر الجاهلي".

قهقه شهاب حتى استلقى على ظهره:

"كيف يكون جاهلياً واسمه صلاح الدين عبد الله؟".

"أنت دائماً تأتي بأسماء غريبة وأفكار أغرب كأننا نعيش في عالمين

منفصلين".

"تقول هذا ونحن ننتمي لجيل واحد ونسكن شقة واحدة؟.. بينما المسافات لم تعد تعني شيئاً... فالحضارات تداخلت والعصور أيضاً، وهذه الحقبة من التاريخ البشري أشبه بمتحف مفتوح للتاريخ الإنساني بعصوره المختلفة... فهناك حضارات وأفكار تعبر حاجز الزمان والمكان وأديان تتصارع وتتحاور و..".

وقاطعه بهي باعتراض صاخب:

"ما كل هذا يا عم شهاب حضارات ومتاحف وسلاحف.. يا عم أنا آسف لك ولشاعرك العظيم.. يا نهار أسود.. قل لي من هو صلاح هذا وارحمني".

"صلاح الدين عبد الله شاعر مصري كفيف لم يرَ الدنيا بعينيه فأبدع في تخيلها، كتب رباعيات مبدعة بالعامية المصرية يقول في إحداها:

أنا عمري ما شربت الخمرة

هاتقوللي عفة؟

ها أقولك لأ

لكن أخاف أسكر مرة

أغلط وأنطق كلمة حق".

اختلطت الأزمنة والأشياء وصارت الأفكار خارج نطاق السيطرة فاستسلم بهي لحالته وتمتم: "أكيد يا عم شفيق أنت أيضاً تخليت عن حذرك وشربت خمراً فأخطأت ونطقت كلمة حق... لكن كلمتك لم تتسبب إلا في شقائي أنا".

لم يكــن بهــي في حاجة إلى سماع تنبيهات طاقم الطائرة عن ربط الأحزمة وفكّها، فمنذ أن ألقى جسده على المقعد وحزام الأمان مربوط، وليته وجد وسيلة ليربط عقله داخل حدود مشهد الطائرة زماناً ومكاناً... ليــت حزام الأمان كان يستطيع. عندما اقتربت الطائرة من الهبوط كان يشــعر أن جسده مشلول، وجرّب بنفسه ما كان يسمعه من شهاب عن الــزهاد الذين يعزفون عن الدنيا حتى يتخلصوا من عبء أجسادهم على عقولهم وأرواحهم..

كانت الكلمات أكثر صدقاً وجدية مما يظن، فبسكون جسده صار عقلــه يغــلي كالمرجل ويضطرب كالمصروع، وكم مرة تمنى أن تطاوعه دموعه في هذه الأيام العصيبة فيبكي وهو يسمع صوت شهاب:

"البكاء شيء نبيل يا بهي".

"عرفت يا شهاب لكن متأخراً... عرفت أنني عشت أعواماً أفر من إنسانيتي.. وأنني أدمنت مخدرات رخيصة.. أتألم الآن ألماً بشعاً وأنا أحاول تخليص جسدي منها.. واضح أن النبل خمسة أحرف نستطيع أن ننطقها بسهولة أما أن نمتلكها فــ..".

انفتحت خزائن الحقائب و لم يعد الوقت مناسباً لا للتأمل ولا لتمني البكاء.

فــتح بهي الحزام وسار في الممر الطويل بين المقاعد... أنهى إجراءاته تقريــباً دون أن ينــبس بكلمة... وخرج من صالة الوصول يبحث عن سيارة تاكسي. اقتربت منه إحداها وأسند يده على الباب المجاور للسائق، وسأله: "بيروت" رمقه السائق بنظرة متسائلة وتردد قبل أن يرد: "مشوار صعب يكلفك...".

وقاطعه بهي وهو يفتح الباب الخلفي ويضع حقيبته: **"المهم أن نصل**

قبل أن يحل الظلام".

والتقت نظرتهما في مرآة السيارة: **"الطريق ليس طويلاً، المشكلة في الحواجز الأمنية... وسأوصلك لأقرب مكان ممكن... وإذا كان هناك اشتباكات أو...".**

وردّ بمي باقتضاب وهو يضغط على الحروف: **"المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام".**

وطبعاً لم تكن هناك فرصة لأن يبدي أي تأفف من حالة السيارة العتيقة ولا لأن يقارنها بسيارته الجولف الأنيقة التي أهداها له أبوه في عيد ميلاده قبل الماضي.

استقر بمي في المقعد الخلفي وفتح حقيبة اليد التي يحملها وأخرج منها مجلة لبنانية ليتصفحها هرباً من طوفان الأفكار المتزاحمة وبحثاً عن أية معلومة يمكن أن تفيده، وبين صفحات ممتدة من البكائيات على بيروت المحطمة توقّف أمام شهادة عن مجزرة صبرا وشاتيلا... الشهادة كتبها دونالد فاجنر أميركي عضو بمجلس الكنائس الأميركي، وانفصل تدريجياً عن السائق والسيارة والطريق:

"دخلت المخيم... كان على يساري مبنى سكني من ثمانية طوابق يستخدم مركزاً إسرائيلياً للقيادة ويمكن من خلاله مراقبة منطقة واسعة، وبالفعل كان هناك جنديان من جيش الدفاع الإسرائيلي يحملان نظارات معظمة ويراقبان المنطقة... في العشرين من سبتمبر وبعد رحلة طويلة إلى بيروت الغربية كنت أنا واثنين من أعضاء إحدى المنظمات المسيحية الأميركية، قد سمعنا بالمذابح التي حدثت في مخيمات اللاجئين، وكنت أسير في طريق كورنيش المزرعة وكأنني أسير في

شــوراع درســدن بعد الحرب العالمية الثانية، فالمنتزه الممتلئ بأشجار الصنوبر كان يحمل آثار القصف المكثف حيث كانت الأشجار محطّمة ومحــترقة، وفي يــوم الحادي والعشرين سمعنا ورأينا في المخيم ما يعجز لساننا عن وصفه!!".

وأحــس بمي الأحمدي أنه أصبح محاطاً بجبال من الأشلاء الآدمية تمتد من مكتب فؤاد عبد القادر إلى قلب بيروت ومن يدري إلى أين تمتد أبعد من ذلك، اختلس نظرة للطريق وعاد إلى التركيز في المجلة:

"كانت مجموعة من فتيان الكشافة اللبنانيين يحملون جثث القتلى عــلى نقالات وتولى أحد البلدوزرات إهالة التراب على بعض الجثث الأخــرى فــيما يشبه المقبرة الجماعية... وقبل أن نتقدم كثيراً داخل المخــيم كانت رائحة الجثث المتعفنة تجبرنا على تغطية أنوفنا وأفواهنا بالمناديل".

وأحــس بمي كما لو كانت رائحة الجثث المتعفنة تهبّ من سطور المجلــة وتــزكم أنفه فرفع عينيه عن المجلة بحركة لاإرادية مقترباً بأنفه من النافذة كمن يبحث عن نسمة هواء نقي، وأخذ نفساً عميقاً.

بدأ السائق يبطئ السيارة ونظر إلى بمي طالباً منه إن كان معه شيء يــريد إخفــاءه أن يخبره ليتولى أمره لأنهما يقتربان من المنفذ الحدودي، وابتسم بمي ابتسامة مفعمة بالمرارة:

"اطمــئن لــيس معي أي شيء من هذا النوع"، "ابق إذن صامتاً ودعني أتصرف"، ردّ السائق وهو ينظر للمنفذ نظرة متفحصة.

لم يكن المنفذ الحدودي مزدحماً لكنه كان مخيفاً فالكل متوتر، وكمّ الجنود المسلحين أكبر بكثير مما توقّع بمي. مدّ السائق يده في تابلوه السيارة

وأخرج علبتي سجائر مستوردتين وضعهما أمام الزجاج الأمامي للسيارة وطــوى ورقتي عملة من فئة العشرة دولارات بعدها أشار بهما بوضوح لــبهي ليعلم أنهما سيضافان إلى الأجر الذي سيدفعه لأنهما جواز المرور الحقيقي... أوقف السيارة ونزل ملوحاً لأحد الضباط:

"كيفك أبو نزار" واحتضنه ودسّ النقود في جيبه بشكل جعل بهي يشعر بالرعب، فلم يتخيل أبداً أن تكون الرشوة في مكان حساس كهذا نصــف علنية كما يرى وعلى الحدود بين دولتين إحداهما تحترق في آتون حــرب أهلية... تخيل للحظات أن يصبح في لحظة متهماً بجريمة رشوة في بلــد غريب وفي هذا الظرف الحساس، وأعانه على استعادة توازنه سريعاً تذكّره كوب الشاي والسيجارة والبقشيش التي طالما فتحت أفواه موظفي النيابة المغلقة.

ابــتعد الصوت وبهي يراقب حديثهما ثم صافح السائق ضابط المنفذ الحــدودي وعاد إلى السيارة وقادها ببطء ليقترب منه جندي الجوازات ودوّى صوت السائق: "توصيلة عائلية... ابن خالي".

ومــدّ يده بعلبتي السجائر للجندي الذي ختم الجواز دون أن يقرأ بــياناته بينما اثنان من الضباط يستلقيان في استراحة المنفذ أمام التلفزيون ودخــان الحشيش يتصاعد كثيفاً من النافذة متحدياً دهشة بهي الذي عاد لصفحات المجلة دون تعليق.

بيــنما كانــت تتوارى شيئاً فشيئاً ملامح المنفذ الحدودي بألوانها القاتمــة، كان السائق يستطرد في سرد قدراته الخارقة على اجتياز المنفذ دون أيــة إجــراءات متحدّياً "شطارة" المصريين... وبهي يعود بالتدريج لاســترخائه وعالم الأسئلة والذكريات والهواجس بعد أن راحت السكرة

وجاء القصف والخطر والموت دون قناع.

بعـــد زمن لم ينشغل بمي بتحديده توقف السائق واستدار داعياً بمي للنـــزول، فحمل حقيبته ودسّ في يد السائق أجراً جعله يقفز فرحاً بينما بمي يتحرك مبتعداً عن السيارة، كما لو كان يعرف وجهته والسائق يناديه بصـــوت عال: **"لا تبتعد عن هنا يا أستاذ... من هذا الميدان يمكنك أن تجد سيارة توصلك".**

توقف بمي بعد خطوات قليلة و لم يطل انتظاره فعرف سائق تاكسي لبناني كهل بخبرته أنه ضيف لا يعرف بيروت...

فـــتح بمي الباب ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس بجوارها، كان يخشى أن يضطره جلوسه في المقعد الأمامي بجوار السائق لمجاراته في حديـــث مستطرد حول أي شيء وكل شيء فجلس في الكرسي الخلفي وسأله السائق بعد سيل من التحيات: **"فندق يا أستاذ؟".**

"نعم" و لم يزد.

3

أطل بهي من نافذة السيارة يتفحص بيروت بحثاً عن تلك المدينة التي عرفها من أفلام السينما المصرية فلم يجدها، التوتر يخيم على كل شيء... آثار القصف بكل الأحجام على المباني وفي الشوارع، وعلى ملامح الناس القليلين الذين رآهم في رحلة السيارة من المطار للفندق، إنهم يحاولون منذ سنوات أن يبعثوا مدينتهم لتخرج كالعنقاء من الرماد. وفي مأساتها تبدو بيروت متحفاً لتاريخ الحرب في العالم كله.. والضحايا متنوعون.. بشر.. مدارس.. مستشفيات.. منازل.. المدينة الرياضية...

وبعــد المدينة الرياضية بقليل توقف السائق أمام فندق، لم يهتم بهي بقــراءة اســم الفندق ولا السؤال عن مستوى الخدمة... نزل غير مبال بالسائق الذي نزل مسرعاً ليفتح باب السيارة ويحمل عنه الحقيبة، فتحرك بهــي متجاهلاً ودسّ في يد السائق عدة دولارات كانت كفيلة بأن يتهلل فرحاً. اتجه بهي مباشرة لاستقبال الفندق وأشار لموظف الاستقبال:

"غرفة مفردة".

وضع جواز السفر أمامه، فأخرج الموظف استمارة وبدأ يملؤها من بــيانات جواز السفر، بينما بهي يطلق عينيه خارج الفندق ليتأمل مشهد أكــياس الرمل التي تحيط بباب الفندق والمسلحين الواقفين أمامه بأرديتهم الداكــنة... مشهد يذكّر الناس الذين لم يكن لديهم سبب للنسيان بأن الحــرب لم تنــته. لم تفــلح المعاملــة الــودودة من موظف الاستقبال والابتســامات الكثيرة التي بذلها لبهي في أن تنتزع من بين أسنانه كلمة واحدة. وسأله الموظف بأدب جم: "كم يوماً ستقيم يا سيدي؟".

"أســبوع" قالها والتقط جواز السفر واتجه نحو المصعد الذي كان مكانــه ظاهراً لا يحتاج إلى سؤال، أشار الموظف إلى أحد عمال الفندق ليحمل حقيبة الضيف إلى غرفته، وجاءه صوت موظف الاستقبال كما لو كان يخرج من بئر سحيق:

"غرفة 303.. الدور الثالث".

لم يكن أمام هي ليفلت من ضجيج الطواحين الدائرة في رأسه إلا أن يــنام.. دخـــل غرفته فوضع الحقيبة على السرير واتجه مباشرة للحمام.. مــنحه الماء بعض السكينة.. لفّ جسده بالمنشفة وخرج من الحمام، فتح حقيبـــته فأخـــرج منها ملابس النوم فارتدى قطعة واحدة منها، وألقى جسده على السرير... وراح في خدر عميق.

بيروت

المجهـول

1

استيقظ بهي على رنين الهاتف في حجرته وجاءه صوت موظف الاستقبال باللهجة اللبنانية المميزة، وردّ بهي باختصار:

"في الغرفة.. شكراً".

رفع الغطاء عن جسده شبه العاري واتجه للحمام فصب الماء على جسده في سرعة، وخرج ليرتدي ملابسه ويتأمل الغرفة للمرة الأولى.. كانت بعد فتح الستائر مشرقة بشمس بيروت الحيّة الدافئة بينما المشهد خارجها تعلوه كآبة لا تخطئها العين... الحرب أقل احتداماً لكن دخانها خانق ورصاصها الطائش لا يتوقف إلا لينطلق مرة أخرى. صحيح أن الكثيرين كانوا يرون أن ما يحدث هو الفصل الأخير لكنه الفصل الأكثر مأساوية، فبحثاً عن الحسم سالت دماء كثيرة وأصبحت المعارك مجازر إبادة شاملة أكثر من كونها صراعاً عسكرياً من النوع المألوف.

"ترى أين أنت في هذا العالم المضطرب يا شهاب".

كان شيء ما يجعل بهي يفكر في شهاب دائماً كما لو كان متأكداً من أنه ما زال حياً، الآن فقط وهو في قلب بيروت أصبح الأمر موضع شك وتساؤل.. لكنه تساؤل حائر محيّر يحمله صاحبه ويكتوي بعذاباته ولا يعرف إلى من يتوجه به.

"نحن لا نختار آباءنا لكننا نختار أصدقاءنا".

تذكّر كلمات شهاب وتمتم: "نعم.. وأحياناً نختار أيضاً نهاياتنا الفاجعة.. أو تختارنا وتصر علينا وتجبرنا على الاقتران بها".

دقّ الباب فاتجه إليه في خطوات ثابتة... فتح لعامل الفندق الذي

قـدم لـه طعام الإفطار ووضعه أمامه بنظام ووضع الفاتورة، وقّع بهي الفاتورة وسلمها للعامل الذي انسحب في هدوء.

استعاد بهي شيئاً من توازنه، وبدأ يعود إلى طبيعته، أكل باعتدال بعد أن كـاد أن يـتحول فعلياً إلى مُضرب عن الطعام تحت وطأة التحولات المفاجئة المتلاحقة التي داهمته طوال الأيام الماضية. تناول عدد اليوم السابق مـن جريدة "الحياة" التي لم تعد تصل بانتظام لمسقط رأسها بيروت منذ غادرتهـا إلى لندن بحثاً عن الأمان.. وكثير من الفنادق اللبنانية أصبحت تعتبرها طقساً يومياً لروادها حتى لو لم تتوفّر في موعد صدورها.

ما كان يشغل بهي في المقام الأول الخطوة الأولى في هذه المدينة التي لا يعرف فيها أحداً.. ولم تكن غربته المشكلة الوحيدة بل كانت المشكلة الأكبر حالة بيروت المخيفة، فهي أشبه بغابة مظلمة كثيفة الشجر تتوزع الفخاخ القاتلة في أرجائها.. وهي لا ترحب بأحد ولا تغلق بابها في وجه أحـد. لكن بهي ما أن دخل من بابها حتى شعر أنه أمام عشرات الأبواب لا يعـرف إلى أيـن يؤدي أي منها، وإن لم يفقد بعد حماسه ورغبته في خوض التجربة.

سـلاح واحد كان يمنح شهاباً إحساساً بالأمان النسبي هو مبلغ كـبير مـن المـال منحه إياه أبوه على مضض لنفقات السفر، فرجل الأعمـال الكبير لم يبتلع أبداً فكرة أن يضيع ابنه الأصغر زهرة عمره في الجـري وراء حلم الصحافة، بينما يملك بالفعل أن يحقق كل ما يحلم به غيره من نجاح ومال إن التحق بإمبراطورية أبيه الضخمة.

كانـت المرة الأولى منذ سنوات التي يحتضن فيها الأب ابنه ويغمره بحـنان حقيقي منذ أن غادر منـزل الأسرة جرياً وراء "المجد" كما كان

أبـــوه ينطقها دائماً ساخراً. تمنى أبوه لــه التوفيق، وقال منبهاً ومنتبهاً إلى خطـــورة المغامــرة: "**ليـــتني ما أرخيت لك الحبل من البداية في هذا الطيش... سافر يا حمار**".

وضـــحكا ضحكة من القلب منحت بهي إحساساً ظن لسنوات أنه في غنى عنه.. بل طالما فرّ منه معتبرا أنه حنان خانق.

2

خرج بهي من المصعد متجهاً إلى استقبال الفندق وسلم مفتاح الغرفة واتجه للباب الخارجي الذي امتدت يد العامل الواقف أمامه لتفتحه بشكل آلي.. توقـف عـلى رصيف الفندق للحظات... وتحركت صوبه سيارة تاكسي ببطء، فتح الباب وركب وطلب من السائق التوجه للسفارة المصرية. السيارات المهشمة المتناثرة على جوانب الطرق كانت تشبه لوحات الفنانين السيرياليين في وحشيتها وعبثيتها، حاول السائق أن يتحدث مع بهي الذي وجد نفسه – لأول مرة – منذ أن ألقي به في هذا الكابوس مستعداً للكلام. سأله عن بيروت ومعاناتها، وأجاب الرجل بصوت قلق وعيون زائغة، ومزج إجاباته بشيء من المزاح أطلق من صدر بهي ضحكة هي أقرب إلى نفثة مصدور.

توقفت السيارة أمام السفارة المصرية التي تركت عليها أجواء الحرب مسحة من التوتر والتوجس.. دسّ في يد السائق عدة دولارات بشكل ينبئ بوضوح عن قلة خبرته بالمدينة. استقبله موظف الاستقبال بفتور مصري صميم، فالمصري بالنسبة لموظف سفارته في الخارج هو غالباً عبء، وفي بيروت التي كان بها غير قليل من المصريين عندما بدأت الحرب كانت طلباتهم مرهقة و لم تكن السفارة قادرة حتى على القيام بواجباتها الروتينية، فهناك سيل لا ينقطع من الطلبات... طلبات للترحيل على نفقتها... وطلبات مساعدات مالية لا تملك السفارة توفيرها... وطلبات شحن جثث موتى واستعلام عن مفقودين... أعطاه الموظف نموذجاً جاهزاً فرضت ظروف الحرب، إعداده فهو ليس عرفاً في أية

ســـفارة مصرية أخرى، وأصر الموظف أن يملأه همي قبل أن يجيب عن أي تساؤل.

غاب الموظف لدقائق وعاد حاملاً كوباً خزفياً تتصاعد منه الأبخرة، وجلس خلف مكتبه بعد أن رمق النموذج الخالي من البيانات بنظرة غير ودودة. بادره همي بلهجة آمرة مشفوعة بتقديم الكارت الشخصي: "**أريد مقابلة الملحق الإعلامي**".

نظـــر الموظف في البطاقة ورفع سماعة الهاتف وطلب رقماً ثم تحدث مع الطرف الآخر مخبراً باسم همي وصفته. أغلق الهاتف واصطحب همي إلى ممـــر يقود إلى داخل المبنى وأصبحت معاملته أكثر وداً. توقف أمام باب مغلق وطرق طرقتين وجاءه صوت من الداخل يأذن لــه في الدخول.

نهـــض رفيق صابر – هكذا تشير لوحة موضوعة على مكتبه – من خلف المكتب واستقبل همي ودعاه للجلوس: "**مؤكد لم تشعرك المعاملة في الخارج بالراحة.. هذه أجواء عصيبة بدلت كل شيء**".

كان توضيحاً لا اعتذاراً، لكنه منح همي قدراً من التفاؤل بأن رفيق شـــخص يمكن التفاهم معه والاستعانة به. بعد التعارف بدأ رفيق يوجّه الأسئلة المتوقعة لضيفه، وفكّر همي هل يكون المدخل الأنسب جورج بيير دي ســـانت أرنو أم شهاب علم الدين؟ أيبدأ بالبحث عن المجهول الذي صار معلوماً أم عن المعلوم الذي لا هو معلوم ولا مجهول بل طيف مؤرق حضر قسراً واحتل المساحة الأكبر من حياة همي؟

حكـــى همي القصة كلها لرفيق وطغت شخصية الدبلوماسي على مشاعر الإنسان.. فالابتسامات محسوبة.. والمفاجآت الصارخة في القصة هـــي مجرد كلمات، رشف رفيق المشروب الدافئ وانتقل من الأريكة التي

كـــان يجلس عليها في مواجهة بهي، وجلس على مكتبه في إشارة واضحة إلى الحاجـــز الزجاجي الرسمي الذي يقف بينهما: "اسمع يا أستاذ بهي... الأمـــر فـــيه خيوط كثيرة يجب فصلها عن بعضها البعض.. التحقيق الـــرسمي في قضـــية اللحوم ليس لنا به صلة.. ولم يطلب منا رسمياً أي شيء بشأنه، وحتى يحدث هذا نحن بعيدون عنه تماماً..".

"أما موضوع صديقك شهاب علم الدين فقدرتنا على مساعدتك عليه محدودة".

قالها وهو يدوّن بيانات دخول شهاب إلى لبنان: "وبخبرتي المحدودة في هـــذا البلد صديقك تطوّع مع أحد أطراف الحرب.. وإذا توفرت معلومات أخرى فقد نستطيع الاهتداء إلى مصيره"...

ورفـــع عينيه عن الأوراق وابتسم لبهي بودّ صادق: "اطمئن هذه ليست مقدّمة للاعتذار... أعدك أن أساعدك على قدر ما أستطيع".

وضـــع بهي فنجان القهوة من يده وتأهب للانصراف وشجّعه جو اللقـــاء عـــلى أن يسأل رفيق بشكل مباشر وهو يتأهب لمغادرة مكتبه: "وبماذا تنصحني؟".

تحـــرك رفـــيق من وراء مكتبه وصافح بهي بحرارة ونظر في عينيه بعمق متخلياً عن عيون الديبلوماسي الزجاجية:

"قبل أن أعمل في الخارجية كنت صحفياً.. وأستطيع أن أعرف ما يشغلك الآن.. لكنني أنصحك بالحذر الشديد... جورج بيير دي سانت أرنو ليس مجرد رجل أعمال..".

وبدأ رفيق يضغط على الحروف بشكل محسوب وموحي:

"إنـــه غـــول... غـــول يمكن أن يبتلعك بلا رحمة.. فهو تاجر

أغذيـــة.. وسلاح.. وسلام.. وثقافة... وكل شيء، ولا تكاد توجد بندقية في لبنان إلا وضغطت يده على زنادها يوماً ما".

لم يكـــن بهي أكثر إحساساً بالرغبة من الإقدام على خوض التجربة من هذه اللحظة وكانت ملامحه تعكس ذلك بوضوح.

"نصيحة ثمينة جداً" لم يجد غير هذه الكلمات القليلة المعبّرة ليردّ بها على كلمات رفيق التي قالها وهو واقف على باب الغرفة.

وقبل أن يمد يده ليفتح باب الغرفة لخروج بهي قال له: **"هذه الحرب أكلـــت كثيرين.. وفضول الصحافة جنى على كثيرين أرجو ألا تكون مـــنهم.. الوكالة الصحفية التي كانت تعرض تمويل رحلتك وتراجعت وهـــذا مؤشـــر شديد الأهمية لدرجة حساسية الموضوع... انتظر مني اتصـــالاً خـــلال يومين... ولا تتخلّ عن ثلاثة أشياء في كل تنقلاتك: جواز سفرك وأموالك... والحذر".**

3

لم يكـــن الاهـــتداء لمكتب جورج بيير دي سانت أرنو في بيروت صعباً.. وقبل أن يبدأ بهي رحلة البحث التي طالما تخيلها طويلة مثيرة مليئة بالغموض كانت رسالة قصيرة تنتظره عند عودته من السفارة في غرفته في الفندق تدعوه لمقابلة مدير العلاقات العامـــة بشركة سامبـــل إتش كي (SAMBL.HK)، وبـــلا غموض أو إثارة، الدعوة محددة للقاء مسؤول العلاقـــات العامـــة في العاشـــرة من صباح اليوم التالي في المبنى الإداري للشـــركة، و"ســـتمر ســـيارة من الشركة في التاسعة والنصف صباحاً لتوصـــيلكم لضمان سلامتكم الشخصية"، فكّر بهي في المخاطر لوقت قصير وبدت العبارة الأخيرة في الرسالة كما لو كانت تحمل تهديداً مبطناً – أو هكـــذا ظن لدقائق – ولكنه كان يعرف عن نفسه جيداً أنه يفتقر للحس الأمني وبالتالي لم يكن في حاجة لوقت طويل ليقرر قبول الدعوة.

كانـــت مفارقـــة مدهشـــة أن يشعر بهي بقدر كبير من السكون النفســـي في بـــيروت النائمة على القلق بينما لم يشعر بالقدر نفسه في القاهـــرة... ربمـــا لأن الأشياء الواضحة مريحة حتى لو كانت قاسية أو صـــاخبة. أخلد بهي للنوم وهو يمنّي نفسه بلقاء يشفي غليله ويجيب عن الكـــثير من الأسئلة التي تؤرقه، كان يشعر وهو في الليلة الثانية في هذا الفـــندق أنه مقيم منذ فترة طويلة، فأصبح أكثر استرخاء رغم النصائح المتوالـــية مـــن إدارة الفـــندق وسائقي التاكسي ورفيق بضرورة الحذر المميت.

في الموعد تمامـــاً جاءت السيارة المزينـــة بعلم صغير يحمل شعـــار

(SAMBL.HK) كما لو كان علم دولة و لم يكن جورج بيير دي سانت أرنـــو بأقل من ذلك فهو دولة داخل الدولة وربما كان دولة فوق الدولة. وجـــاءت الســـيارة في الموعـــد تماماً وقبله بكثير كان بمي مستعداً منتبه الحـــواس، قدّم السائق نفسه لبهي وكانت شارة معدنية ذهبية اللون على سترته السوداء تحمل شعار الشركة، واتجه السائق بخطوات محسوبة ليفتح باب السيارة لبهي ويغلقه خلفه دون أن ينبس بكلمة.

اســـتدار الســـائق وجلس خلف عجلة القيادة ونظر لبهي في المرآة نظرة خاطفة، تحركت السيارة ببهي من أمام الفندق لتعبر شارعاً إثر آخر ثم استدارت نحو اليسار ودخلت شارعاً شديد الأناقة، عرف فيما بعد أنه شـــارع الحمراء... أحذ أفخم شوارع بيروت. ومرت السيارة من أمام ميرديـــان الحمراء الغاص بالنـــزلاء فكان شديد الأناقة لا يبالي بالحرب، عـــلى غير ما توقع. توقفت السيارة وصحبه السائق إلى مبنى فخم تزينه لافتات سامبل إتش كي (SAMBL.HK.) بأحجام مختلفة... المكان كله مصـــقول بشكل ملفت، مرآة للذوق الفرنسي، والناس تتحرك في رشاقة آسرة.

قـــاده الســـائق إلى مكتب الاستقبال فاستمهله الموظف لدقائق... جلـــس على مقعد جلدي أسود فاحم مريح بجانبه منضدة صغيرة عليها منفضة سجائر وشعار معدني للشركة وكتيب تعريفي معدّ بعناية.. كانت الدقـــائق التي قضاها كافية لأن يتأمل التناقض بين البريق الأخاذ للأشياء ومعانيها، وتذكّر ذلك الشيخ الجزائري الذي قيل لـــه إن الفرنسيين جاءوا الجزائـــر لنشـــر الحضـــارة فقال في عفوية مذهلة: "**ولماذا أتوا بكل هذا البارود؟**".

بـــدأ بهـــي يـــرى الأشياء بعيني شهاب علم الدين، و لم تعد تبهره

العبارات الجوفاء عن عاصمة النور.. وبرج إيفل.. وفلاسفة التنوير التي تستعين بها هذه الشركة ذات الأذرع الأخطبوطية، تناول كتاب التعريف وقلّب صفحاته العربية وتجولت عيناه بين السطور، استوقفه أن للشركة جهوداً في دعم مؤسسات إغاثية غربية وبرامج ذات شعارات إنسانية... ولم يكن بإمكانه فك كل الألغاز دفعة واحدة.

انتقل بهي إلى مكتب مدير العلاقات العامة... فرنسي من أصل عربي ناعم نعومة الأفاعي ينزلق بشكل زئبقي فلا تكاد تمسك به.. تلك مهارته الوحيدة. رحّب ببهي ودخل إلى الموضوع مباشرة: **"في حدود علمي سبب زيارتك المباشر صفقة اللحوم التي أثارت ضجة في مصر قبل أسابيع... ونحن على يقين من أنك كصحافي نزيه يحترم الأعراف المهنية لن تقبل أن تكون سلاحاً في يد شركة منافسة للتشهير بنا.. نقدّر الصحافة إلى أبعد حدّ، ولذلك فضّلنا أن نتصل بك مباشرة لنضع كل الحقائق أمامك".**

"يبدو أن التعاقدية الغربية الصارمة ستكون لها فائدة لأول مرة" هكذا حاول بهي أن يفهم المدخل المباشر الذي اختاره رجل العلاقات العامة الفرنسي المتعرب.

"الذي حدث مسيو بهي خطأ إداري واجهناه بكل حسم، والذي حدث أن منظمات إغاثية عديدة دخلت مخيم صبرا وشاتيلا بعد الكارثة وكانت الحالة مأساوية".

... تجمعت على وجه بهي سحب قاتمة من الغضب الأسود، فانتفض واقفاً وقاطع محدّثه بغلظة قاسية: **"دخلتم ماذا؟"**.

"أستاذ بهي" قالها مهدّئاً بنبرة تهديد مبطنة... **"الحرب نحن لم**

نصنعها.. بل صنعها اللبنانيون مدعومين بأطراف عربية وغير عربية".

وتحـــدث الرجل بتحدّ: "أرجو ألا تنسَ أنهم في حرب المخيمات كـــان هناك لبنانيون يحاصرون إخوانهم اللبنانيين وأن المحاصرين أكلوا لحـــوم الكـــلاب والقطط.. وفي آخر الشوط استصدروا فتوى دينية لـــلموجودين تحـــت الحصـــار في حرب المخيمات تجيز لهم أكل لحوم البشر".

وبدأ بهي يحدّث نفسه: "هذه المقدمة لا تبشّر بخير أو كما يقولون عندنا في مصر (أول القصيدة كفر)".

عـــادت لهجة الفرنسي المتعرّب إلى هدوئها وبدأ يبني على المقدمة السابقة موجّهاً كلامه لبهي بلهجة تقريرية لا تخلو من تودد: "نحن شركة تجاريـــة، وقد اكتوينا بالحرب ربما أكثر من غيرنا، دورنا في المخيمات كان إنسانياً محضاً لم تكن وراءه أية أبعاد سياسية أو تجارية".

"أكمل" قالها بهي وهو يجلس متأهباً لسماع كارثة أبشع من كل ما سمع وكل ما تخيّل.

"الحالـــة في المخيم كانت بالغة البشاعة والجثث كانت أكواماً.. طلب منا، كشركة تعمل في مجال حفظ اللحوم ونقلها أن نقدم معاونة لم نـــتأخر فيها.. وخلال أيام كانت الجثث تملأ ثلاجاتنا.. كانت هناك ضرورة بيئية في المقام الأول"...

ابـــتلع بهي كلام محدّثه وإن لم يستطع أن يبلع ريقه، وملأ الغضب عينـــيه وقـــال: "دون تبريرات... حتى الآن أنت لم تقل ما الخطأ غير المقصود الذي حدث؟".

مـــدّ الـــرجل يده بعلبة شيكولاتة فاخرة لبهي ليأخذ منها قطعة

فدفعها همي بيده دون أن ينطق وعيناه تتقدان بالغضب.

واستطرد الرجل: **"بعض الجثث استخدمت في تجارب تتصل بحفظ اللحوم دون علم إدارة الشركة... تجاوز في استخدام الصلاحيات من إحدى الإدارات الفرعية".**

وبشكل لاشعوري تقلصت معدة همي وانعكست حالته على ملامح وجهه الذي اكتسى بلون الدم واحتقن احتقاناً شديداً... وبدأ همي يتقيأ بعنف.

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا لحمل همي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة. بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية.. أفاق همي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرّب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وبادره قائلاً:

"نحن ندرك شعوركم الطاغي بالاختلاف عنا... ولهذا فضّلنا أن نصدّر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة... والجزء القليل الذي صدّر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها".

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خارج النافذة مستطرداً: **"..وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القيء يا مسيو ثمن طبيعي للتقدم... فلا تقدّم دون ثمن وتضحية وقسوة... طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم السلبية لنا... نحن نجرّب فنصيب ونخطئ...**

وبالتالي نتقدّم.."

ثم حـــدّق في عينيه متحدياً: ".. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم مقيّدون بقيود العاطفة والقداسة... إنني أحدثك باعتبارك مثقفاً سيعي معنى ما أقول"..

وصمت بهي للحظات...

ثم بصق في وجهه!!

بيروت

باريس

1

اكتشف بهي بعد أن صحا من نومه في اليوم التالي أنه لم يكن في كابوس وهو ما ضاعف صدمته... جاء من مصر بحثاً عن إثارة وأسرار عصية يطاردها وتراوغه، فإذا هو أمام منظومة متكاملة من العري الوقح، أشياء عارية بلا أقنعة ولا حجب وعريها الرخيص يفقدها كل معنى. بهذه البساطة يتحدثون عن الإنسان وينزعون القداسة عن حياته وموته، ويتجرأون عليه ويقدّمون لحمه للكلاب والقطط معلباً. حالة من التبلّد لم يجد مفراً منها، ربما هي التي أنقذت بهي من أن يصاب بانهيار عصبي حاد، وجاء اتصال تليفوني من السفارة المصرية كان فيه صوت رفيق مكسواً بوقار حزين: "**وهل هناك أسوأ مما سمعت؟!**".

كان سؤالاً منطقياً سأله بهي لنفسه وهو يتلقى دعوة رفيق لزيارة السفارة في أقرب وقت. كانت نهاية زيارته للشركة الفرنسية تشعره أن نهاية الرحلة أسرع مما كان يتصور بكثير... ارتدى ملابسه وصار العبوس ملمحاً ثابتاً لوجهه الذي أضافت لـه الصدمات تجاعيد كان يحتاج رسمها لسنوات.

لم ينسه عامل الاستقبال بعد الزيارة الأولى فقاده مباشرة لمكتب الأستاذ رفيق... اكتسى وجه رفيق هذه المرة بمسحة إشفاق وجلس بهي وهو لا يرى شيئاً في العالم يمكن أن يكون أسوأ مما سمع. سأله رفيق عن أخبار مهمته وأدهشه أن يعلم بأمر زيارته للشركة، وترك رفيق التحفظ الرسمي وقال لبهي:

"**زيارتك لنا أنقذتك من الموت المحقق... لأنهم فضلوا أن**

يـــتفاهموا معـــك مباشرة على أمل أن تغلق الملف طواعية وتعود... وبمجـــرد أن زرت الســـفارة أصبح التخلص منك في الظلام وادعاء الجهل بوجودك ابتداء أمراً عسيراً".

بدأ شيء من الهدوء يعود لبهي وأحس أن شجاعته كانت في محلها، وتساءل: **"والآن؟".**

ردّ رفـــيق مؤكـــداً ما سبق أن قاله في الزيارة السابقة: **"السفارة ليست طرفاً في الأمر على الإطلاق... أنت هنا مواطن مصري أسدي لك النصح بصفة شخصية ومن منطلق إنساني، وما سأقوله لك عرفته بالأمس فقط ومن صديق لبناني نافذ أطلعني بصفة شخصية على بعض الخلفيات الحقيقية للقصة... لكن في البداية قل بالضبط ماذا حدث في زيارتك لمكتب أرنو".**

قـــصّ بهـــي القصـــة على رفيق وشعر للمرة الأولى أنه يتخلى عن السمت الرسمي الذي وسم لقاءهما الأول فتخلى هو الآخر عن شيء من البروتوكول وطلب منه أن يقدم لـــه كوب شاي...

انطلق رفيق يفضّ بعضاً من الغلالات التي تحجب الحقيقة عن عيني بهي: **"لم يكن الأمر خطأ كما قال لك الفرنسي الذي قابلته.. بل تجارة مـــنظمة بـــدأت بالصدفة... فمع استمرار سقوط الضحايا في الحرب الأهلية فكّر شخص ما في الحصول على أعضاء بشرية منهم للمتاجرة بها في تجارة الأعضاء الرائجة، واقتضى هذا تنظيم العمل".**

بـــدا بهـــي وهو يسمع كما لو كان شخصاً آخر، أصبح كالجرّاح الـــذي اعتاد رؤية الدماء وإعمال المبضع في الأجساد، كانت ملامحه تتأثر بشـــكل محســـوب لا تشـــنج فيه. وأكمل رفيق: **"منظمة إغاثية توفّر**

الواجهـــة... وميليشيات توفّر الوصول للجثث في الوقت المناسب... وشبكة علاقات دولية تضمن الاستفادة على أكمل وجه... مجرد تجارة في تقديرهم... لا مؤامرة ولا صراع سياسي".

وأحس همي بمزيد من الوضوح منحه إحساساً بأنه وضع يده على الجانب الأكبر من الحقيقة.

"وعلى فكرة يا أستاذ همي.. التحقيق في مصر لا يعنيهم كثيراً لأن الشـــركة الـــتي صـــدّروا لها في حدود معلوماتي كانت هي الأخرى ضحية.. لكن ما يهمهم هنا... أن بعض الكبار متورطون وفتح الملف سيزيد الأمور تعقيداً... ولهذا السبب".

وصمت رفيق وبدا متردداً فشجّعه همي: "تكلّم دون أدنى حرج يا أســـتاذ رفـــيق، وتأكد أنني مقدّر شجاعتك... وممتنّ أشد الامتنان لما قدمته لي رغم قيود عملك الرسمي".

كـــان رفـــيق يفـــرغ آخر ما في جعبته: "أنصحك بمغادرة لبنان فوراً...".

وقبل أن يصدر عن همي ردّ أو استفسار قال رفيق: "لو أنهم علموا بصلتك بشهاب علم الدين لقتلوك فوراً".

عـــاد همـــي إلى توتـــره فانتفض واقفاً بشكل لاشعوري ووقفت الكلمات في حلقه... ضغط على الكلمات بصعوبة حتى لا تخرج صارخة صـــاخبة: "شهاب علم الدين؟! لقد كدت أنسى موضوع شهاب... ولكن.. لو علموا بصلتي بشهاب علم الدين لقتلوني... لماذا؟".

وجـــاء ردّ رفيق حازماً: "نعم شهاب علم الدين دفع حياته ثمناً لمحاولـــة فضح هذه التجارة القذرة... وقد تخلصوا من جثته بالطريقة

نفسها، ولو علموا لقتلوك كما قتلوه".

وكأنها كانت قنبلة فجّرها رفيق في وجه همي فشطره نصفين.. كل صدمة كان يمكن احتمالها إلا أن يكون هذا مصير شهاب علم الدين...

صــرخ همــي كالمجـنون وأمسك بملابس رفيق وهو يهزه بعنف ويصرخ: "لا... لا.. لا.. شهاب.. لا..".

وتمزقــت ملابــس رفيق بين يديه، وامتدت ثورته لتحطم كل ما يمكن تحطيمه من أثاث في المكتب.

2

في غـــرفة بمصـــحة نفسية بضاحية المعادي الهادئة بالقاهرة انتهت الـــرحلة سريعاً... ولم يكن لديه بعد رحلته هذه أي فضول لأن يعرف كـــيف نقـــل إلى هذا المكان بل ربما كره الفضول كله... وتمنّى لو لم يدخل هذا العالم ولم يحلم بأن يتوّج في بلاط صاحبة الجلالة، لكنه أبداً لم يتمن أن يشطب من حياته صفحة شهاب علم الدين بكل مرارالها.

تحمّل بمي حتى خارت قواه وأصيب بالهيار عصبي حاد.

لم يكـــن هشـــاً أو قليل الاحتمال، بل كان ما واجهه فوق طاقة البشر... سقطت الأقنعة عن عالمه كله في تجربة تركت فيه أثراً يشبه أثر نصل حاد تمسك به يد مقاتل بدائي قوية.

جـــاءه زوار كثيرون لكنه كان شاعراً بسعادة خاصة لزيارة أبيه، والأغـــرب أن الأب كان لديه إحساس غامض بأن بمي تغيّر فيه شيء مـــا... إلى الأحسن... الحوارات بينهما كانت مقطوعة دائماً والمسافة كانت تتسع بمرور الزمن.

في كل مرة كانت الزيارة تختتم بمونولوج لا يتغير:

"هل ينقصك شيء؟".

"ينقصني أن أراك في أقرب وقت".

ثم يتبادلان تحيات تقليدية.

لكـــن بمي ما إن استعاد شيئاً من حيويته وبدأ يتماثل للشفاء حتى تغـــيّرت إجابـــته عـــلى سؤال أبيه وجاءت مشفوعة هذه المرة بطلب، ولأســـباب عديدة كان عبد الهادي الأحمدي مدفوعاً لإجابة طلب ابنه.

نظـــر هـــي إلى أبـــيه بعينين غائمتين بدموع تمنّاها طويلاً وتأبّت عليه: **"شهاب كان يدافع عنا جميعاً يا أبي... فتخلّينا عنه حياً وأكلناه ميتاً".**

انهمــــرت الدمـــوع منهما ساخنة صادقة هادرة وارتفع النشيج، وأكمل هي محدّثاً والده بالنبرة الباكية نفسها: **"ساعدني يا أبي أن أجمع ما يمكن أن يكون رفات صديق عمري وأدفنها".**

3

لم يكن عبد الهادي الأحمدي يتخيّل أن تنتهي مساعيه لشد ابنه إلى عالمه عالم المال والسطوة إلى أن يدخل هو نفسه عالم بهي في تجربة غريبة كهذه، وأن يجد نفسه في قلب هذا الإعصار، لكنه في النهاية يتصرّف في المقام الأول كأب...

وقـــد منحته دائماً علاقاته المتشعبة بالمسؤولين... كل المسؤولين... كمـــا هـــو عالم البزنس في أي بلد متخلّف قدرة على الحصول على ما يريد، كل ما يريد. لكن ما كان يريده المرء كان يلفّه الغموض ويتصف بالغرابة الشديدة.

مـــا اســـتطاع أن يعـــرفه في الـــنهاية بعـــد أيام من الاتصالات والاستفسارات أن ما يطلبه ليس مستحيلاً لكنه مشروط، والشرط الأهم ألا تـــتحول الجـــنازة إلى قضـــية رأي عام بأي صورة حتى لا يعاد فتح الملف... أما المشايخ الذين رجع إليهم فرغم كثرتهم، لم يتفق منهم اثنان على رأي، فمنهم من أجاز دون شروط ومنهم أجاز بشروط ومنهم من حرّم...

كـــان اســـم عبد الهادي الأحمدي كفيلاً بإقناع المسؤولين بتسليمه البضـــائع المصـــادرة التي لم يتم التصرف فيها بإعدامها كما هو مألوف، فبســـبب حساسية الموقف وغرابة الجريمة بقيت اللحوم التي فجّرت هذه القـــنابل المتوالـــية في وجه بهي تحت التحفظ وظل وضعها معلقاً... وبدا طلـــب عبد الهادي الأحمدي في نظر بعض المسؤولين حلاً لمشكلة ظلت لفترة دون حل.

كانت جنازة هزيلة غريبة... حُملت العلب التي اختلطت فيها لحوم جثث آدمية مجهولة بلحوم بقر في مجموعة من النعوش كأنها ضحايا مذبحة وهم بالفعل كذلك. وانطلق المشيّعون القليلون الذين كانت قلتهم نتيجة تعهّد عبد الهادي بأن يتم الأمر دون ضجيج وفي أضيق نطاق.

وبـــين المشـــيّعين سار بهي الأحمدي متثاقلاً يغالب رغبة عارمة في الـــبكاء والتقيؤ، ويبدو كمن يحمل العالم على كتفيه... سار بهي لا يكاد يشـــعر بـــأحد ويستند لأول مرة منذ سنوات على ذراع أبيه... أفكار ومشـــاعر كثيرة متضاربة تتنازعه ومشاهد كثيرة تتوالى أمام عينيه ويلحّ عليه سؤال واحد:

"تـــرى... إلى أي علبة من هذه أشعر بالحنين إذا تذكرت شهاب علم الدين؟".



تنويه لازم

أولاً: الجنرالات الفرنسيون الواردة أسماؤهم في الرواية شخصيات حقيقية، ورسائلهم الواردة بها نصوص حقيقية منقولة من مصادرها التاريخية.

ثانياً: الشاعر صلاح عبد الله شخص حقيقي بملامحه الواردة في الرواية، وهو كفيف منحه الله بصيرة نادرة وعقلية ناقدة وموهبة إبداعية جبارة، والأبيات المنسوبة إليه في الرواية هي من ديوانه المخطوط "رباعيات".

ثالثاً: قصيدة "بيروت" من أعمال كاتب الرواية ومنشورة في أحد دواوينه، والوارد في الرواية جزء منها.

رابعاً: دونالد فاجنر أميركي عضو مجلس الكنائس الأميركي شخصية حقيقية والشهادة الواردة في الرواية حقيقية ومنشورة في عدة مصادر صحفية.

ممدوح الشيخ

سـيرة ذاتية

الاسم: ممدوح محمود محمد الشيخ علي

الشهرة: **ممدوح الشيخ**

تاريخ الميلاد: 1967/8/14

الجنسية: **مصري**

كاتـب ومفكـر إسـلامي، عضو منظمة "كتاب بلا حدود" (ألمانـيا)، وردت لـه ترجمة في الطبعة الأولى من: "**معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين**".

أعمال إبداعية منشورة

1 - نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، الطبعة الأولى 1996، الطبعة الثانية 2003.

طبعة إليكترونية على nashri.net - 2004.

طبعة إليكترونية على diwanalarab.com — 2004.

2 - عاصمة للبيع (مسرحية)، دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة، دولة الإمارات 2000.

3 - هو المستحيل (قصيدة شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.

طبعة إليكترونية على nashri.net - 2003.

4 - الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.

5 - الندى والموت (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.

طبعة إليكترونية على diwanalarab.com — 2004.

طبعة إليكترونية على - nashri.net - 2004.

كتابات نقدية تناولت أعماله

* "ممدوح الشيخ وعماد أبو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات"، صافي ناز كاظم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 2003.
* "مقاربـــات نقدية في شعر ممدوح الشيخ"، تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالـــية، صـــبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي، إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا، مصر 2004.

مؤلفات أخرى منشورة

1 – أشهر الأحلام في التاريخ، مكتبة ابن سينا، مصر 1993.

2 – المسلمون ومؤامرات الإبادة، مكتبة مدبولي الصغير، مصر 1994.

3 – التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم، دار التضامن، لبنان 1996.

4 - الإســـلاميون والعلمانـــيون من الحوار إلى الحرب، الطبعة الأولى، دار البيارق، الأردن 1999.

الطـــبعة الثانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن.

5 – البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن، خلود للنشر، مصر 2000.

6 – الشـــعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟ طبعة إليكترونية – e-kotob.com، 2002.

7 – مقاربـــات نقديـــة في شعر رمضان أبو غالية، بالاشتراك مع الأساتذة: صبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي، من إصدارات نادي

الأدب ببيت ثقافة قويسنا، مصر 2004.

8 – الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول، مكتبة مدبولي، مصر 2005.

أعمال أعدها للنشر أو حرّرها

اكتشـــف وأعاد نشر رواية: "**اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشـــة وقعت في نصف قرن**" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية الــتي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "**فارس بلا جواد**". وقد قدّم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

1 - **اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن** (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى، 1996، دار الحسام، لبنان – مصر.

الطبعة الثانية، دار الانتشار العربي، بيروت 2003.

2 - حرّر (بالاشتراك) موسوعة "**اليهود واليهودية والصهيونية**"، 8 مجلدات، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر 1998.

3 - حـــرّر (بالاشـــتراك) موسوعة "**اليهود واليهودية والصهيونية**" لمؤلفها المفكـــر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان)، دار الشروق، مصر، بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات، 2004.

أعمال تحت الطبع

1 - العلمانية والدين: اقتراب جديد، دار التضامن، لبنان.

2 - القصة القصيرة المصرية: النشأة - التطور - التمرد، دار الشرق الأوسط، سراييفو.

3 - (ترجمة) فرنسا في القرن التاسع عشر (1830- 1890)؛ - تأليف: إليزابيث لاتيمار.

4 - الوصايا.

5 - الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

6 - الأقباط والدولة والغرب: من الصياد ومن الفريسة؟

دوريات نشرت دراساته ومقالاته وقصائده

جريدة الحياة (لندن) - جريدة القدس العربي (لندن) - مجلة الغد العربي (لندن) - مجلة النور (لندن) - جريدة المسلمون (لندن) - مجلة مراصد (لندن) - جريدة المستقلة (لندن) - جريدة الاتجاه الآخر (هولندا) - جريدة الأيام العربية (قبرص) - مجلة الشاهد (قبرص) - مجلة رسالة الجهاد (مالطة) - مجلة الرائد (ألمانيا) - مجلة الدليل (ألمانيا) - مجلة الإسلام وفلسطين (ألمانيا) - مجلة القلم (أميركا) - مجلة الصراط المستقيم (أميركا) - مجلة الرشاد (أميركا) - جريدة الوطن (أميركا) - جريدة الوفاق (إيران).

جريدة البيان (الإمارات) - مجلة تراث (الإمارات) - مجلة منار الإسلام (الإمارات) - مجلة المنتدى (الإمارات) - مجلة شؤون اجتماعية (الإمارات) - جريدة العالم الإسلامي (مكة المكرمة) - المجلة العربية (السعودية) - مجلة

الفيصل (السعودية) - مجلة الحرس الوطني (السعودية) - مجلة كلية الملك خالد العســكرية (السعودية) - مجلة الآطام (السعودية) - مجلة أبعاد (السعودية) - جريدة الجزيرة (السعودية) - جريدة اليوم (السعودية) - مجلة الوعي الإسلامي (الكويــت) - المجلــة الخيرية (الكويت) - جريدة الرأي العام (الكويت) - جــريدة الفــنون (الكويت) - مجلة قرطاس (الكويت) - مجلة التقدم العلمي (الكويت) - مجلة الفرقان (الكويت) - مجلة الهداية (البحرين) - جريدة الشرق (قطــر) - جريدة الاتحاد (العراق) - جريدة اليومية (العراق) - جريدة البلد (لبنان) - مجلة الفكر الجديد (لبنان) - مجلة الوحدة الإسلامية (لبنان) - مجلة المحجــة (لبــنان) - جــريدة الاستقلال (فلسطين المحتلة) - جريدة التجديد (المغرب) - جريدة الصحافة (السودان) - جريدة الثورة (اليمن).

مجلــة المخــتار الإسلامي (مصر) - مجلة المنار الجديد (مصر) - مجلة حوارات المستقبل (مصر) - مجلة منبر الشرق (مصر) - جريدة الشعب (مصر) - جــريدة الأسبوع (مصر) - جريدة مصر (مصر) - جريدة صوت الشعب (مصر) - جريدة الأحرار (مصر) - جريدة العربي (مصر) - جريدة الجمهورية (مصــر) - مجلــة مراجعات (مصر) - مجلة البداية (مصر) - جريدة القاهرة (مصر) - جريدة المصري اليوم (مصر) - جريدة نهضة مصر (مصر) - جريدة الدســتور (مصــر) - جريدة اللواء الإسلامي (مصر) - جريدة آفاق عربية (مصر).

جـوائز

حاصل على جوائز عديدة عن إبداعه في الشعر والمسرح داخل مصر وخارجها منها:

* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية"، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991، المركز الثالث في مجال الشعر.
* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية"، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992 ، المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.
* جائـــزة أفضـــل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة"، مصر 1999، عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".
* جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000، عن مسرحية "عاصمة للبيع".
* جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة"، مصر، الدورة الأولى، 2003.
* جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصـــور الـــثقافة"، مصر، الدورة الثانية، 2004، عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".
* جائـــزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالمملكة العربـــية الســـعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423 هجرية، عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

مساهمات أخرى

* مقرّر أمانة الدعوة والتثقيف بحزب العمل (1993 – 1996).
* أحد مؤسسي حزب "الوسط المصري" (1998).
* باحث في "المركز الدولي للدراسات" (1998 – 2001).
* يشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور، مصر 2005 – .
* شارك في تأسيس "مركز المستقبل للدراسات والأبحاث"، مصر (المدير التنفيذي – سابقاً).
* عضو "المنظمة المصرية لحقوق الإنسان".
* عضو "رابطة الأدب الإسلامي".
* عضو مؤتمر "أدباء مصر في الأقاليم".
* منسّق "حركة حماية حقوق الناخب" (حماية).
* قُـدّمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن – نوفمبر 2002).
* شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في مصر ولبنان وليبيا والإمارات.

E-Mail: mmshikh@hotmail.com
mmshikh@maktoob.com
Website: http://mamdouhalshikh.friendsofdemocracy.net